



صبري.JPG

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله والصَّلاة والسلام على رسول الله وبعد:

كان أحمد يعيش - بل كان يظن أنه يعيش - كان هناك سعيدًا، بل كان يَحسب أنه سعيد، كان يَمتطي صهوة الموت متصورًا أنَّها الحياة! نعم، كان هناك - يومًا - بعيدًا عن الحياة، كان هناك بجسد يفتقد إلى رُوح، فاستفاق يومًا مُتسائلاً: أين رُوحي؟ وما من مجيب! فانتفض أين رُوحي؟ لكنَّ أحدًا لا يُجيب هناك.

كان هناك بوجهه الشاحب يَجلس تحت أعمدة الإنارة وبين المصابيح المضيئة، لكنَّه لا يرى النُّور، فقام من هناك، وراح يبحث عن رُوحه، ويتلمس النور، فنودي: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: 122]، فاستفاق وعزم ألاَّ يعود إلى هناك، نعم كان أحمد هناك "ثم عاد...!".

دارت أحداثُ هذه القصة في أكناف مَسجدٍ جامع من مساجد مدينة الإسكندرية، يُشرف على ساحلها، وفي بعض ليالي رمضان 1429 التقيتُ أحمدَ وهو في بداية عَوْدَتِه من هناك، كان متلهفًا أن يتعرَّف على الحياة هنا في أحضان الهداية، ودار بيننا هذا الحوارُ كإضاءات ولَمحات عن معالم هذا الطَّريق الذي يسلُكُه أوَّل مرة، هذا الطريقُ الذي وإنْ طال، فنهايته تتألق بالأمل، وتُضيء كالشَّمس، وتشرق كالفجر، فمن جاء إلى هذا الطريق هنا، يأبى أنْ يذهبَ مرة أخرى هناك، لقد كنَّا كلنا يومًا هناك، فكلنا بطل هذه القِصَّة.

فلمن يعيشُ هنا وإلى مَن يظن أنَّه يَحيا هناك، هذه الإضاءاتُ لنا جميعًا، "وإنَّا والله ما نُعلِّمكم ما تَجهلون، ولكن نُذكِّركم بما تعلمون"[[1]](#footnote-1)، فهذه المعاني المبثوثة في هذه الرِّسالة مُستوفاة في كتب العلماء الأوَّلين، ولكنَّها صياغة جديدة وتبسيط للمعاني، أو إنْ شئت، فقُلْ - مخاطبةً لأهل العصر بلُغتهم -: "فالأول إن لم يترك للآخر إلاَّ تبسيطَ المعاني وضربَ الأمثلة، ومُخاطبة أهل العصر بلغتهم، لكَفى الآخر ذلك عُذرًا"[[2]](#footnote-2)، فخذ أيُّها العائد رسالتي هنيئًا مريئًا، فإنْ كان من خيرٍ، فالحمدُ لله ربِّ العالمين، وإنْ كان غير ذلك، فاستغفرِ الله - عزَّ وجلَّ - وامتثل قولَ الشاعر:

لَقَدْ مَضَيْتُ وَرَاءَ الرَّكْبِ ذَا عَرَجٍ مُؤَمِّلاً جَبْرَ مَا لَقِيتُ مِنْ عَرَجِ

فَإِنْ لَحِقْتُ بِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا سَبَقُوا فَكَمْ لِرَبِّ الْوَرَى فِي النَّاسِ مِنْ فَرَجِ

وَإِنْ ضَلَلْتُ بِقَفْرِ الْأَرْضِ مُنْقَطِعًا فَمَا عَلَى أَعْرَجٍ فِي النَّاسِ مِنْ حَرَجِ

**وكتبه: صبري بن رجب**

فصول القصة

* **الفصل الأول: اللقاء.**
* **الفصل الثاني: يا ليتنا ما تركناها.**
* **الفصل الثالث: ضربة البداية.**
* **الفصل الرابع: تحديات العصر.**
* **الفصل الخامس: نحو المعالي.**
* **الفصل السادس: بريق الهدف.**
* **الفصل السابع: من أجل عبد حقيقي.**
* **الفصل الثامن: من خاف سلم.**
* **الفصل التاسع: مخلصين له الدين.**
* **الفصل العاشر: نحو بناء متكامل.**
* **الفصل الحادي عشر: برمج حياتك.**

**الفصل الأول**

**اللقاء**

في ليلة باسمة من ليالي رمضان الرَّائقة، وفي مسجد جامع من مساجد بَلدتنا، كان اللقاء بيني وبينه - شاب يافع هادئ الطِّباع - يَميل إلى قلة الحديث، فيكتفي بِرَدِّ تحيتي عليه، ثُمَّ ينهمك في شأنه، كأنه يَحمل فوقَ رأسه حملاً - تلامست أكتافُنا في الصَّلاة أكثرَ من ليلة، وكنت أسمع أزيزًا لصدره في صلاتنا وفي جلسة التشهُّد.

وقبل أنْ يسلِّمَ الإمام يسارع إلى تجفيف دموعِه؛ حرصًا منه على ألاَّ يراه أحد، وفي ليلة من الليالي وفي الاستراحة بين الركعات ذهبتُ للوضوء، قابلته والدَّمع يَملأ عينه، فسألته: ما لَكَ يا أحمد؟ فرفع بصرَه إليَّ وهو في انهيار تامٍّ - تنحَّيْنَا قليلاً عن الناس - وكأنَّه فقد السيطرةَ على نفسه:

- أخي ما لك يا حبيبي؟

قال: لا أدري، قلت: إذًا مِمَّ تبكي؟

- قال: مضى من رمضان أكثر مما بَقِيَ ولا أعرف أين أذهب، وماذا أفعل؟

أنا منذ أنْ بدأت أصلي التراويح معكم هنا، وأنا في راحة كبيرة لم أشعر بها في أي شأن من شؤوني الحياتيَّة، حتى خطيبتي التي كنت أظنُّ أنَّ أسعدَ لحظات حياتي أقضيها معها، لحظاتي معها ليس لها وَزْن في مُقابل هذه الركعات التي أقف فيها بين يدي ربِّي، حتى حلمي بأن أكون غنيًّا ذا صيت وشأن لا مكان له الآن، وأريد بدلاً منه أنْ - سكت عن الكلام - قلت: أكملْ يا أحمد، ماذا تريد بدلاً منه؟ قال: أريد أن - ولكن لا تضحكْ منِّي - أجبته بابتسامتي، قال: أريد أنْ أستغلَّ صوتي في القرآن، وأصلي إمامًا بكلِّ هؤلاء الناس بعد حفظ القرآن وتعلُّم التجويد، وأن أعلِّمَ كل الدُّنيا القرآن، وأن يشعروا بما أشعر به، قاطعته: أحمد، عندك هذا الهدفُ الجميل ولا تدري أين تذهب؟ وماذا تفعل؟ يا ليتني أملك هدفًا جميلاً مثل هدفِك، فأعيش من أجله، قال: صحيح؟ قلت: نعم والله، فقال: ولكن العقبات كثيرة والفِتَن مُميتة والذُّنوب كالجبال، قاطعه صوت الإمام عبر مُكبِّر الصوت: استووا، قال مسرعًا: عِدْنِي أن نتكلمَ غدًا عن كل هذه الأمور، قلت: إن شاء الله.

تَمَّت الصلاة، وانصرف كلانا.

**الفصل الثاني**

**يا ليتنا ما تركناها**

غربت شمسُ يوم من أيام رمضان، أشرق معها ليلُ القائمين القانتين، اجتمع المصلُّون في مساجدهم لصلاةِ التراويح، وصلتُ إلى مسجدنا، أَرْمُقُ أحمدَ من بعيد يتلفَّت يَمْنَةً ويَسْرةً، التقت حدقاتنا، فتهلل وجهُه كأنَّه كان يتلفت باحثًا عنِّي، سررت بتهلل وجهه، لم ينتظر حتى أصل إليه ولكن قام من مكانه تاركًا سواكَه النحيل يَحفظ له مكانه حتى يرجع، استقبلني بالعناق في لهجة المستبشر: أعدَدْتَ نفسَك، ذاكرت جيدًا قائمة التساؤُلات الطويلة والمُتشعبة، أجبته بنحو من حماسَتِه: أنْ نعم، المهم أن تكون أنت مستعدًّا، قال بشغف: لم أنَم البارحةَ لأُرتب كلَّ ما يدور في رأسي من أسئلة مُتناثرة، لطالما أتعبتني حتى وصلت إلى حالتي التي رأيتني فيها بالأمس.

قلت: والحال اليومَ؟ قال وهو يتنفس الصُّعَدَاء: بِمُجرد أن بدأت أرتب - لا أقول - أوراقي بل أسئلتي، بدأتِ الراحةُ تتسلل إلَيَّ، قلت: الحمدُ لله الذي بنعمته تَتِمُّ الصالحات، ولكن يا أحمد لا بُدَّ أن يكون بيننا مِساحة واسعة من الوقت، حَتَّى تتم راحتك، قال: اليومَ سيبدأ التهجُّد، ما رأيك لو جلسنا من التراويح حتى موعد التهجُّد، قلت: لا بأس نَجلس إنْ شاء الله.

انشغل أحمد في قراءة القرآن حتى أقيمت الصَّلاة، ثم جاءني تلقاءَ وجهي قائلاً بلهجة قوية: أليس العيشُ في الجنة أفضل من هذه الدُّنيا المليئة بالفتن والآهات والآلام والمحن، قلت: بلى، يا أحمد جمعنا الله بها، قال: لم أقصد هذا، ولكن أقصد بقاءنا مع أبينا آدم - عليه السَّلام - دون أن نَهبط إلى الأرض، يا ليتنا ما تركناها، قلت: حسنًا يا أخي، ألَسْتَ تعلمُ أنَّ الله حكيمٌ، قال: بلى، إنِّي من ذلك على يقين، سبحانه! قلت: فاعلم يا أحمد أنَّ الله – سبحانه - لما أهبطَ آدمَ من الجنة، كان له في ذلك من الحكم التي تعجز العقولُ عن معرفتها، والألسن عن صفاتها، وكان إهباطه منه عين كماله؛ ليعود فيها على أحسن أحواله، فأراد – سبحانه - أن يذيقه وولده من نَصَبِ الدُّنيا وهمومها ما يعظم به عندهم مِقْدار دُخُولهم إليها في الدار الآخرة، فإنَّ الضِّدَّ يُظهر حسنَه الضدُّ.

ولو تربَّوا في دار النعيم، لم يعرفوا قَدْرَها، كذلك يا حبيبي، فإنه – سبحانه - أراد أمره ونهيه، وليست الجنة دارَ تكليف فأهبطهم إلى الأرض وعرَّضَهم بذلك لأفضل الثَّواب الذي لم يكن ينال من دون الأمر والنهي؛ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]، وأظنك يا أحمد تعلم أنه - سبحانه وتعالى - يُحب الصابرين، ويُحب المحسنين، ويُحِب المتطهرين، ويُحِب الشاكرين، واقتضت حكمته أن يُسْكِن آدمَ وبَنيه دارًا يأتون فيها بهذه الصِّفات التي ينالون بها أعلى الكرامات، فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم؛ ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 105][[3]](#footnote-3)، قال أحمد: سبحان الله! الهبوط من الجنة من أعظم النِّعَم؟! فعلاً لله الحكمة البالغة، قلت: نعم، يا أحمد، إنَّ من أفعال الله - عزَّ وجلَّ - التي ملؤها الحكمة ما هو ظاهر الحكمة مَعلوم، ومنها ما يَخفى علينا؛ لحكمةٍ يَعلمها وَحْده سبحانه، قال أحمد: آمنت بالله، والله لقد أثَّرت في قلبي رَغبة شديدة في أن أتعرَّف على ربِّي أكثر، فهل من الممكن أن نتحدث عن الله قليلاً، قلت: لا، بل نتحدث كثيرًا إن شاء الله، ما أجمل الحديثَ عن الله!

أتدري يا أخي أنَّ أعظم زينة يُضفيها العبدُ على حياته خطوات يَخطوها في طريق معرفةِ الله - سبحانه وتعالى - بل كما قال ابن القيم - رحمه الله -: من عرف الله - تعالى - صفا له العيشُ، وطابتْ له الحياة، وهابه كلُّ شيء، وذهب عنه خوفُ المخلوقين، بل والله، يا أخي، مَن عرف ربَّه حقًّا، استمرأ المُرَّ، واستعذب العذاب في رضاه سبحانه.

قال متلهفًا: زدني عن ربِّي زدني، قلت: يا أخي، الله - عزَّ وجلَّ - له الخلق والأمر، وهو وحْدَه الذي يَملك هذا الكون بكل ما فيه؛ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: 120] كل ما تراه أمامَك، وكل ما يوجد خلفك ملك ذاتي لله - جل ثناؤه؛ ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 91].

كلُّ شيء في هذه الحياة يَستمدُّ احتياجاته منه - سبحانه - جميع احتياجات الخلائق من خزائنه سبحانه؛ ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: 7]، الإمداد بالنوم واليقظة والشُّعور بالراحة والتعب، والقيام والقعود، والضحك والبكاء، كل هذا وغيره يستمد فاعليته من الله - عزَّ وجلَّ - ولا يُوجد أي مصدر في هذا الكون يقوم بذلك إلاَّ من خزائنه؛ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: 21]، وكُلُّ آثارٍ لقوة تراها في الوجود، فهي مُستمدة منه سبحانه؛ ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39]، وعندما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]، كان الرد الإلهي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]، فله سبحانه القُوَّة المطلقة والفاعليَّة المطلقة - سبحانه - الذي يَحملنا في البحر والبر والجو، وما السيارة وما أرجلنا إلا أسباب شكليَّة لا قيمةَ لها من دون المدد الإلهي؛ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: 22]، وتأمَّل معي أخي في بيان هذه الحقيقة وتجليتها في قِصَّة نَجاة نوح - عليه السَّلام - بعد ركوبه السَّفينة، والتي مكث طويلاً يصنعها؛ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: 13]، نعم أخي، فالذي حمل نوحًا - عليه السَّلام - هو الله - سبحانه - وما السفينة إلاَّ ألواح خشبية ومسامير لا قيمةَ لها من دون المدَدِ الإلهي؛ ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: 41][[4]](#footnote-4).

هنا قال أحمد - وكأنَّه عصفور يضرب بجناحيه فرحًا -: لا أكتُمُكَ قولاً: وأنت تُحدِّثني عن ربِّي كانت نبضات قلبي تزداد رويدًا رويدًا، ومشاعري تنطق: أحبه نعم، نعم أحب ربي، ليس لي سواه، فأجبته وقد انتقل إليَّ فيضٌ من أحاسيسه -: وكيف لا تُحبه يا أحمد، وكلُّ جميل في الوجود هو قد جمَّله لك، وكل حسن في الحياة هو قد حسنه من أجلك، كيفَ لا تُحبه وهو طيب سبحانه، جميل، حليم، رؤوف، رفيق، عفو، غفور سبحانه؟!

"عفوه يستغرق الذُّنوب، فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال؟! فكيف حبه وحبه يدهش العقول؟! فكيف وُدُّه ووده ينسي ما دونه؟! فكيف لطفه؟!"[[5]](#footnote-5)، يبشر مَن آمن وعمل صالِحًا بوُدِّه؛ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]، يضحك سبحانه من قنوت عباده وقرب خيره عن أبي سعيد الخدري  قال: قال رسول الله : "((ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب خيره))، وقال أبو رزين: لن نعدم من رب يضحك خيرًا"[[6]](#footnote-6).

قال أحمد: ربِّ ما أحلمك! رب ما أحكمك! ربِّ ما أرأفك! رب ما أجملك! والله لا أدري أين كنت من هذه الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى، حقيقة أشعر أنَّني كنت في ظلام، وأنا الآن ألمح النُّور كضوءِ الفجر ساعة ينشق، ألمح هذا النُّور ينصب عليَّ، قلت: صدقت يا أحمد، فالله يقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: 35].

أتدرى يا أحمد؟ "في قوله - تعالى -: ﴿مثل نوره﴾؛ يعني: نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين"[[7]](#footnote-7)، وكلما ازداد القُرب من القرآن مع زيادة مَنسوب الإيمان يَزداد هذا النور في القلب، حتى إذا امتلأ القلبُ بالنُّور، فاضَ على مَن حوله حتى ينيرَ الدنيا بأسرها، فقال أحمد مندهشًا: ما شاء الله، والله إنَّ الدين جميلٌ، ولكن للأسف لقد فاتني كل هذا الخير فيما مضى من عمري للأسف.

أجبته: عَلَى رِسْلِكَ؛ أيُّ عمرٍ قد مضى؟ لقد بدأت حياتك الآن، استقبل عمرَك الجديد يا أخي، ودع عنك هذه الأوهام، فالعبرة ليست بمن سَبَقَ، ولكن العبرة بمن صدق، بادرني قائلاً: ولكن... قاطعته: من غير ولكن... استقبل عمرَك، أنت الآن استيقظت من سُباتِك، فما الذي تفعله في مرحلة (اليقظة)[[8]](#footnote-8)؟

أشار إلِيَّ مستفهمًا؟ قلت: قل: الحمد الله الذي أحيانًا بعد ما أماتنا وإليه النُّشور، ثم ابدأ في العملِ، ولا تلتفت إلى ما كان، فالأيَّام ثلاثة: يوم مضى بما فيه ولن يعود، ويوم قادم لا ندري ما فيه، ويوم أنت فيه، فانشغل بالعمل وأحْيِه، قال: ما العمل إذًا؟ وما الخطوة التالية في هذا الطَّريق المشرق المنير، قلت: ضربة البداية، قال مبتسمًا: وما ضربة البداية؟! قلت: بَقِيَ خمسُ دقائق على الصلاة، غدًا - إن شاء الله - نشترك سويًّا في ضربة البداية فما رأيك؟ قال متحسرًا: الوقت الجميل يَمُرُّ سريعًا، قلت: الوقت الجميل في طاعة الله باقٍ ببقاء طاعتنا له سبحانه.

خرج الإمام، قمنا للصلاة.

**حافز قبل ضربة البداية**

عن أبي طويل شطب الممدود  قال: أتيتُ النبي  فقلت: أرأيت مَن عَمِلَ الذنوب كلها، ولم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة[[9]](#footnote-9) إلاَّ أتاها، فهل لذلك من توبة؟

قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((فهل أسلمت؟))، قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: ((تفعلُ الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن)).

قال: وغدراتي وفجراتي؟

قال: ((نعم)).

قال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى تَوَارى[[10]](#footnote-10).

**الفصل الثالث**

**ضربة البداية**

نصف ساعة انقضت بعد عصر يوم من أيام رمضان المبارك، هاتفي النَّقَّال يعلن عن تلقي اتِّصال، إنَّه أحمد، السَّلام عليكم، كيف حالك يا أحمد؟ وعليكم السلام، الحمد لله بخير، أعتذر عن الاتِّصال إنْ كان الوقتُ غير مناسب، قلت: ابدأ يا أخي، قال: هل من الممكن أن تتقبَّل دَعوتي على الإفطار اليومَ؟ قلت مداعبًا: أنا أعرف سِرَّ هذه الدعوة، قال ضاحكًا: وما هو؟ قلت: أنت مُتعجِّل ضربةَ البداية، قال: صحيح، قلت: آتيك إن شاء الله.

صلينا المغرب، ثم صعدنا إلى بيت أحمد الذي لا يبعد عن المسجد كثيرًا، وقبل أن نأخذ مقاعدنا، بادرني: أنْ هيا نقوم بضربة البداية، حَدِّثْنِي عنها، قلت: ضربة البداية هي الأساس في كل ما ستَبنيه في طريقك إلى الله - عزَّ وجلَّ - فإذا صَحَّت ضربة البداية يصحُّ ما بعدها إن شاء الله، وكل مقدمة ولها نتيجة، والنَّحلة إذا أفرزت لا تفرز إلاَّ العسل، ودودة القز إذا نسجت لا تنسجُ إلاَّ الحرير.

إنَّ هذه الضربة - أعني ضربة البداية - هي التوبة، "وهي أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقها العبد السالك، ولا يزال فيها إلى الممات، وإن ارتَحَل إلى منزل آخر، ارتحل بالتوبة واستصحبها معه، فالتَّوبة هي بداية العبد ونِهايته، ويلازم التوبة"[[11]](#footnote-11).

ولا بُدَّ أن يُلازمها العزم، والعزم هو الحرص والتصميم الجازم على فعل شيء ما، ومن أهميته كان العزم حجرَ الزَّاوية في التوبة، فهو شرط من شروط التوبة، بل إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - جَعَل أفضلَ رسله - عليهم الصلاة والسلام - هم أولي العزم؛ ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35][[12]](#footnote-12)، فالعزم لازم إذًا في كل مراحل السير إلى الله، كلزوم التوبة لا ينفكُّ عنها، قاطعني: ولكنك تحدثني عن التوبة كأني لم أتب، وإلاَّ لماذا أنا في المسجد؟ أجبني، قلت: يا أخي، الله - عزَّ وجلَّ - أمر كل المؤمنين بالتوبة؛ فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]، ألم أقل لك: إنَّ التوبة لا تنفكُّ عن العبد بحال من الأحوال، فالتوبة درجات، كما سُئِلَ الحسين المغازلي عن التوبة، فقال: تسألني عن توبة الإنابة أم توبة الاستجابة؟ قال السائل: وما توبة الإنابة؟ قال: أن تخافَ من الله من أجل قُدرته عليك، قال: فما توبة الاستجابة؟ قال: أن تستحي من الله لقُربه منك[[13]](#footnote-13).

واعلم - يا أحمد - أنَّك اتَّخذت موقِعَك من التوبة، نعم ولكن في أيِّ درجة من درجات التوبة، فالنوع الأول من التوبة - الذي هو توبة الإنابة - لا يكون إلاَّ بعد مقام اليقظة، يقظة الإنسان من غفلته واكتشافه أنَّه غارق في مُستنقع الشهوات والمعاصي، فيشتاق إلى لحظة سعيدة مع الطاهرين، والثانية هي توبة العبد المستقيم السالك إلى الله إذا أصابه الشيطان في طريقه ببعض الطلقات والنَّخسات.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]، فليس شرط ذلك التائب العصمة، ولكن الطبيعة البشرية لازمة، فالله - عزَّ وجلَّ - يثني على المؤمنين وذكر أنَّهم من الممكن أنْ تصدرَ منهم أعمال سيئة كبيرة، أو ما دون ذلك، ولكنهم يُبادرون بالرجوع والاستغفار، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم مع ندمهم الشديد.

إنَّ التوبةَ - يا أيها التائب - هي شلال الجمال المتدفِّق من كوثر الرَّحمن، الفواح بأريح عطاء الله وكرمه، التوبة يا أيها التائب هي وضوء النفس وطهورها تَمامًا، كما أنَّ الأعضاء البدنية وضوءها وطهورها الماء، فأَنْ تتوبَ إلى الله يعني: أنَّك تتطهر، وأنك تُجرِّد نفسك من خبائثها تجريدًا، التوبة - يا أيها التائب - ترتقي بصاحبها عبر الأمواج الدافقة نحو السماء، إنَّها جمال الطهور المفضي إلى بحر المحبة الإلهي؛ قال جَلَّ جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، وبذلك كان سيد التائبين  يدعو على إثر الوضوء: ((اللهم اجعلني من التوَّابين، واجعلني من المتطهرين))[[14]](#footnote-14)، فقرن بذلك بين طهورين في سياق واحد: طهور النفس، وطهور البدن[[15]](#footnote-15).

قال أحمد: ما أجملَ هذه المعاني في تنفيذ التوبة، لكن هناك إشكال في جانب من جوانب التوبة، والعَودة إلى الله، وهو أنِّي مثلاً على سبيل المثال قرَّرت قبل ذلك أنْ أتركَ الذنوب، ثم أعود، ثم أشعر بالألم، فأتوب، ثم أذنب، ومن الممكن أنْ تصلَ إمَّا إلى اللامبالاة بالذنب، ويأس من المغفرة، وإمَّا إن كان هناك عزيمة أعودُ مرة أخرى إلى التوبة، فما الحل؟ أجبته: سبحان الله! يا أحمد، ما أشبه الليلة بالبارحة! قال: وما ذاك؟

قلت: "عن عقبة بن عامر  قال: إنَّ رجلاً جاء إلى النبي  فقال: يا رسول الله، أحدنا يُذنب، قال: ((يكتب عليه))، قال: ثم يستغفر منه ويتوبُ، قال: ((يغفر له ويُتاب عليه))، قال: فيعودُ، فيذنب، قال: ((فيكتب عليه))، قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: ((يغفر له ويتاب عليه، ولا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا))"[[16]](#footnote-16)، فالباب إذًا مَفتوح لا يغلق، ليس هذا فحسب، بل ربنا يُقرِّر لعباده ويُناديهم كما في الحديث القدسي: ((يا عبادي، إنَّكم تُخطِئون بالليل والنَّهار، وأنا أغفر الذُّنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم...))[[17]](#footnote-17).

أحمد يا أخي، "هنا في ظلال الله لا قنوط ولا يأس، وإنَّما أبواب السماء تنفتح بنور منهمر، وينادي سبحانه على عباده الغارقين في أوحال الذُّنوب: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]، إنَّها لتعجز الكلمات البشرية عن وصف ما ينفتح عنه هذا الباب السماوي الفسيح من خيرات ورحمات؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53]، فما لهؤلاء اليائسين المعرضين؛ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 104]، إنَّ على المؤمن السالك أنْ يعرف أنَّ الله يُعطي بغير حساب عندما تذوق ذلك ذوقًا، تَجد له في قلبك ظلاًّ جميلاً يَمتد في الآفاق إلى ما لا نهاية، تستغفر الله، تطرقُ بابَ كرمه المفتوح أبدًا، ثم تدخل لتشاهد كيف أنَّه - سبحانه - يغفر الذُّنوب جميعًا، ترى شلال الرَّحمة تنهمر أنواره عليك واردات من الفرح الإلهي.

قاطعني أحمد: وهل يفرح الله؟ أجبته: هذا نص النبي  يُحدثنا: ((لَلَّه أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طَعَامه وشرابه، فآيس منها، فأتى شجرة فاضجع في ظلها ينتظر الموت، فبينما هو كذلك إذا بها قائمة عند رأسه، فأخذ بخطامها، ثم قال: اللهم أنت عبدي، وأنا ربُّك أخطأ من شِدَّة الفرح))[[18]](#footnote-18) [[19]](#footnote-19)، عندما تصل ربَّك فيصلك وتُحِبُّه ويُحِبُّك وتقترب منه، فيقربك، ولك أن تعلمَ يا أحمد أن أعظمَ نية في قلب التائب أنه يفرح ربُّه - سبحانه - بتوبته، ثم يُجازيك بأن يفرحك ويسعدك، ما أكرمه! أظن أنَّ الوقت مر سريعًا، هل دخل وقتُ العشاء؟ قال: بقيت دقيقة، قلت: إذًا نذهب إلى المسجد، ونكمل بعد التراويح إنْ شاء الله، قال: أشعر كأنِّي عروس في يوم عُرسه من شدة فَرحتي، أجبته: حُقَّ لك ذلك، فأنت تائب.

تبادلنا الضحكات، وهرعنا إلى الصَّلاة.

**﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: 112]**

أخي القارئ، بينما نصلي العشاء والتراويح أتركك مع تائب كبير هو ابن الجوزي - رحمه الله - وتحليقٍ في سماء قوله - تعالى -: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: 112].

"سُبحان من وَفَّق للتوبة أقوامًا، ثبَّت لهم على صراطها أقدامًا، كفُّوا الأكفَّ عن المحارم احترامًا، وأتعبوا في استدراك الفارط عظامًا، فكفر عنهم ذنوبًا وآثامًا، ونشر لهم على ما عملوا أعلامًا، فهم على رياض المدائح بترك القبائح يتقلَّبون.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: 112] كشف لهم سخف الدُّنيا فرَأَوا عيوبَها، وألاح لهم الأخرى، فتلمَّحوا غيوبها، وبادروا شمس الحياة يَخافون غيوبها، وأسبلوا دموعَ الأجفان على تلك الأشجان غروبها، واستغلوا الطاعات فحصلوا مرغوبها، وحَثَّهم الإيمان على الخوف فما يأمنون؛ ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ﴾ [التوبة: 112].

- نظروا إلى الدُّنيا بعين الاعتبار، فعلموا أنَّها لا تصلحُ للقرار، وتأمَّلوا أساسها، فإذا هي على شفا جُرُف هارٍ، فنغصوا بالصيام لَذَّة الهوى بالنهار، وبالأسحار يستغفرون.

**"التائبون العابدون"**

- يا ربِّ، سِرْ بنا في درب النَّجابة، ووفقنا للتوبة والإنابة، وافتح لنا أبواب الإجابة، يا من إذا سأله المضطر أجابه، يا من يقول للشيء كن فيكون؛ **"التائبون العابدون"[[20]](#footnote-20).**

**الفصل الرابع**

**تحديات العصر**

انقضتِ الصَّلاة، ورشف المصلون من مَعين القرآن، وقرَّت أعينهم بركوعها وسجودِها، ثم انصرفوا إلى شُؤونِهم على أمل بالعودة عند صلاة التهجُّد، ومكث بعضهم بين تالٍ وذاكر منتظرًا تَهجده وتَحَنُّثَه، وجاء أحمد يَحمل كأسين من الشاي احتفظ بأحدِهما، ودفع إليَّ الثاني قائلاً: هل تظن أنَّ موضوع الرجوع إلى الله ميسور على جميع الناس دون عَقَبات أو عوائق أو حواجز؟ قلت: بالطبع لا، وألف لا، فلا بُدَّ لمن سلك طريق الهداية أن يُواجِهَ تَحديات كبيرة، لا سِيَّما في هذا العصر الذي يتَّسم بسرعة الإيقاع، وسُهُولة الاتِّصالات، والغزو الفكري، تحديات وتحديات من انحلال خُلُقي، وفَسَاد اجتماعي، وفتنة المال، والشهوات، والشبهات، نعم يا أحمد، "قد يتأرجح الشابُّ المسلم أمام هذه التحديات من الفساد والانحلال بين أن يحجم عن مفاتن الحياة وتحديات المجون، وبين أن ينزلق في مهاوي الفتنة"[[21]](#footnote-21).

لكن اعلم أخي أنَّ أوَّلَ الغيث قطرةٌ ثم ينهمر، المهم أن تبدأ، وقد جاء رجلٌ كافر إلى رسولِ الله  فقال له النبي : ((أسلم))، قال الرجل: أجدني كارهًا، فقال - عليه الصلاة والسلام -: ((أسلم ولو كنت كارهًا))[[22]](#footnote-22)، قال ابنُ رجب - رحمه الله -: "وهذا يدل على صحة الإسلام مع نفور القلب وكراهته له، لكنه إذا دخل الإسلام واعتاده وألفه دخل حبه قلبه، ووجد حلاوته"[[23]](#footnote-23)، فالمهم إذًا أن تبدأ، ثم تستمر وتظل تقاوم التحديات والفتن، وبعدها تَجد الحلاوة واللَّذة... بعد الألم الذي صادف في البداية، وقد حكى البعضُ عن أفلاطون قوله: "الفضائلُ مُرَّة الأوائل حُلْوة العواقب، والرَّذائل حلوة الأوائل مُرَّة العواقب"[[24]](#footnote-24)، وأحسن منه قولُ رسولِ الله : ((حُفَّتِ النارُ بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره)). إذًا يا أحمد، من الطبيعي جدًّا وجود التحديات، بل هو من طبيعة طريق الهداية، لكن - يا أحمد - في رأيك ما أكبر فتنة وتَحَدٍّ يعترضُ طريقَ مَن أراد الهداية؟ قال أحمد - دون تردد -: تَحدي الشَّهوة وفتنة النِّساء يتقطع من طَعَناتِها الشباب، قلت: صدقت يا أحمد، مع الأسف... إنَّها فتنة شديدة حقًّا خاصَّة وهي تُسانِدُها القوى الفطرية: النفس، والهوى، والميل الطبيعي، نعم يا أحمد، ينهار أمام هذه الفتنة الكثيرُ من الشَّباب، ولكنَّك ستَعْجَب، وحُقَّ لك أن تعجب، إنَّ الآثام التي تؤرِّقنا اليومَ كانت مَوجودة بنفس تحدياتها في عهد الصَّحابة، قاطعني مستنكرًا: لا، لا، لا، يعني مثلاً فتنة النِّساء في الجامعة أين كانت على عهد الصَّحابة؟

أجبته: لا تعجل عليَّ، النساء كُنَّ يَطُفْنَ حول الكعبة عاريات دون لباس، أيُّهما أشد؟ الجامعة أم طواف العاريات؟ قال: لكنَّ رسول الله  كان معهم، والوحي يتنَزل بين أظهرهم، قلت: أنا أوافقك، نعم، رسولُ الله  ليس بيننا، والوحي لا يتنزل علينا، ولكن رسول الله  معنا بِهَدْيه وسنته؛ ((تركت فيكم ما إنْ تَمسَّكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا كتابَ الله وسُنَّتِي)).

الوحي تَمَّت مُهمته واكتمل الدين ثانيًا، كلما ازدادت الصُّعوبات واشتدت الفتن، ازداد ثوابُ العاملين وأجر الصامدين؛ ((العبادةُ في الْهَرْجِ كَهِجْرَة إليَّ))، قال أحمد: الكلامُ جميل جدًّا، ولكنَّ الشبابَ يريدون حلاًّ عمليًّا، قلت: ممتاز جدًّا، فاسمع إذًا: "من الناس من يكفُّ هواه بسلسلة، ومنهم من يكفُّه بخيط، بمعنى أنَّ من الناس من يَحتاط، ويضع المحاذير التي تَمنع قدمه أن تزلَّ في الهاوية، ومنهم من بنى دارَه على الهاوية ذاتِها، ثم يلوم غيره؛ لعدم إيجاد حل"[[25]](#footnote-25).

والشَّرع جاء بالمباعدة، ووضع المحاذير، فَأَمَر بغضِّ البصر والنَّهي عن الاختلاط، وحَرَّم مصافحةَ الأجنبيَّة، ومنع الخلوة بها، ونهى عن الدُّخول على النِّساء، كل هذه حلولٌ عملية، ولكن بَقِيَ أن نطبقها، فمثلاً الحلُّ الأول: "غضُّ البصر، معلوم أنَّ حاسة البصر من أخطر الحواس في هذا الجانب، وأنَّ الشابَّ الذي يَقضي نَهاره ينقل بصرَه في مطالعة مَفاتن النساء، ثم يعود وقد شحن خاطِرَه بالصُّور الفاسدة لا بُدَّ أن يفرغ الشحنة بضياع استقامته، يمسك المصحف، فإذا بصور النساء تتراءى له على صفحات المصحف، يَجلس لذكر الله، فإذا لسانه يتكلم وعقله يفكر فيما رآه، يغلق المصحف ويترك الذكر، وينطلق في شهواته، إذًا اقطعْها من البداية، غُضَّ بَصَرَك تنطفئ نارُ شهوتك..."[[26]](#footnote-26).

الخطة الشهيرة

وَمن أنْجح الخطوات في مُواجهة تحدي الشهوة: قطعُ الطريق على الشيطان، وعدم تتبُّع خطواته، وخطته الشهيرة: نظرة، فابتسامة، فسلام، فموعد، فلقاء، كلُّها خطوات من خطوات الشيطان؛ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: 268]، وأطراف هذه الخطة في تزيين السُّوء والباطل، فزميلتي أختي، وجارتي أكثر من أختي، ثُمَّ الوقوع في الفخ؛ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [العنكبوت: 38].

**ترك التعامُل مع العدو** من أهمِّ الخطوات التي تُساعد على إفشال خُطَّة التزيين الإبليسيَّة، وترك الاسترسال في الخواطر السيئة، فإذا داهمتك خاطرة - وهذا وارد - "والقلب يهوى ويتمنَّى"، فغَيِّر وَضْعَك في الحال، إذا كنت في غُرفتك وحيدًا، اخرج واجلس مع عائلتك، أو اذهب للمسجد، أو اتَّصل بصديقٍ صالح، فهذا يُشتِّت التركيزَ ويُبعثره، واشغل نفسَك دائمًا، فلا تجعل مكانًا للخطرات، وتذكَّر دائمًا أنَّ المشغولَ لا يُشغَل، ونَفسُك إن لم تشغلْها بالحق، شَغَلَتْكَ بالباطل.

**احذر الخيوط العنكبوتية** "الحذر من الخيوط العنكبوتية خُطوة في مُواجهة تحدي الشهوة، أقصد ترشيد استخدام الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، فلا تُبحر في الإنترنت دون هدف سابق، فإنَّ هذا يُسهِّل على الشيطان مُهِمَّتَه في استدراجك إلى المواقع السيئة، ومن المستحسن أن تضعَ حاسوبَك في مكان مكشوف من البيت، مع وضع برنامج ضد المواقع الخبيثة"[[27]](#footnote-27)، وهذا كله من باب الأخذ بأسباب النَّجاة في مواجهة هذا التحدي، ولكن هناك خطوة هي أنْجح هذه الخطوات، وأهمها أنَّها:

**"ليس لي سواك"** الإعتصام بالله، والاستعانة به، وطلب العون منه؛ ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]، فيتوكل العبدُ على الله في صرف الفواحش عنه، وعصمته من المنكرات، وفي الحديث: ((ومن يستعفف، يعفه الله))[[28]](#footnote-28)، فيجأر العبد إلى الله، يا رب ليس لي سواك، اعصمني من الفتن، وهنا قال أحمد: إنَّها حقًّا خطوات رائعة في مواجهة هذا التحدي، بل إنَّها تحدي التحدي، فهل من معينات أخرى لهذا التَّحدي، قلت: نعم، معرفة حقيقتها، وعدم الاغترار بها.

**آه لو عرف العبد الحقيقة**

قال مُتعجبًا: حقيقة من؟ قلت: الدُّنيا وطبيعتها، وحقيقةُ لذَّاتِها ونعيمها الخدَّاع، "فما الدُّنيا ونعيمها إلاَّ مأكول أو مشروب أو ملبوس أو مشموم أو منكوح، أمَّا المأكول، فأفضله العسل، وهو إفراز حشرة، وأمَّا الملبوس فأفضله الحرير، وهو صنع دودة، وأمَّا المشموم فهو المسك، وهو دم حيوان، وأمَّا المنكوح فهن النِّساء، وهن مَبَالٍ في مَبَالٍ؛ ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77]، فمَعرفة حقيقة الدُّنيا وطبائع الأشياء خُطوة ضرورية لمواجهة كل التحديات، وإذا تأمَّل كل عاقل، لعلم أنَّ "عامة مصالح النفوس في مكروهاتِها.

كما أنَّ عامَّة مضارِّها وأسباب هلكتها في محبوبتها، فانظر إلى الأب الشفيق على ولده، العالم بمصلحته، إذا رأى مصلحته في شقِّ بطنه وقطع عروقه؛ "لإجراء عملية مثلاً"، لأذاقه الألم الشديدَ؛ لأجل هذه المصلحة، وإن رأى شفاءه في قطع عضو من أعضائه، أزاله عنه؛ رحمة به، وشفقة عليه، وإنْ رأى مَصلحته أنْ يُمسك عنه العطاء لم يُعطه، ولم يُوسع عليه؛ لعلمه أنَّ ذلك أكبر الأسباب إلى هلاكه وفساده، وكذلك يَمنعه كثيرًا من شهواته؛ حمية له ومصلحة، لا بُخلاً عليه[[29]](#footnote-29).

وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأعلم العالمين أمسك عن عباده وأمرهم بما فيه صالحهم، وإن خالف ذلك شهواتِهم ونفوسَهم"[[30]](#footnote-30).

وهنا أشرق وجه أحمد قائلاً: أظنُّ أنَّ الصورة قد أضاءت أمامي في مُواجهة هذا التحدي، ولكن قفز إلى ذهني تحدٍّ آخر من تحديات العصر، أظن أنَّه لا يقل في خطورته عن التحدي الأول، وله ارتباطٌ وثيق به، قلت: ما هذا التحدي؟ قال: تحدي ضياع الأخلاق وانهيارها وفُشُو الانحرافات السلوكية، قلت: أحسنت يا أحمد، إنَّ الانحرافات السلوكية لها آثارٌ مُهلكة وعَواقب وَخيمة على الفرد، وتَمتد إلى الأمَّة في أساسها الدِّيني، وترابُطها الاجتماعي، وقوتها الصحية والنفسية.

وقد قال رسول الله : ((أقربكم مني منزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا))، فالأخلاق - يا أحمد - هي: "أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره، وهي إمَّا مَحمودة أو مذمومة"[[31]](#footnote-31)، وهي كذلك "انعكاسٌ لصورة الإنسان الباطنة، بمنزلة الخَلْق لصورته الظاهرة"[[32]](#footnote-32).

بالفعل إنَّ هذا التحدي من أخطر التحديات التي تواجِهُ المسلم، فالأخلاق من معايير التقدُّم والتخلُّف، ولو أنَّك رجعت معي بذاكرتك إلى الوراء؛ لنتذكر كيف تربع الإسلامُ في جنوب شرق أسيا بأخلاق المسلمين، ودون سيف أو نَصْل، فكان تقدمهم بعلو أخلاقهم، وتَسَلَّط علينا الأعداء بعكس ذلك؛ "إنَّنا يا أحمد لن نستطيع أن نقنع أعداءنا بالكف عن أذانا، ولكن من الممكن بنهوضنا أخلاقيًّا أن نحملهم على الإسلام"[[33]](#footnote-33).

ولكن الانحراف السلوكي شرخ في الناحية الدينية، فيؤدي إلى تشويه حقيقة الإسلام، ويسبب الانهيارُ الخلقيُّ للمجتمعات المسلمة تصديرَ صُورة مُشوهة للإسلام، ومِنْ ثَمَّ نوهم الناس بسلوكنا الفاسد أنَّ هذا هو الدِّين الإسلامي المتمثل في سلوك أتباعه، والناس مَعذورون في عدم تفريقهم بين السُّلوكيات الفردية المنحرفة وحقيقة الدين.

قاطعني أحمد قائلاً: أستطيع أن أفهمَ من ذلك أنَّ المسؤولية مُشتركة بين كل المسلمين في إظهار مَحاسن هذا الدين، برفع راية الفضائل، وقتل الرذائل، أجبته: نعم يا أحمد، حتَّى وإن كانت الفضيلةُ في عيون الناس صغيرة، فالتَّبسُّم في وجوه المسلمين صدقة، وإماطة الأذى عن الطريق صدقة، وإيناس الوحشان صدقة، وسُقيا الحيوان صدقة، وإرشاد الأعمى إلى طريقه صدقة، كل هذه الأخلاق تظهر كأنَّها صغيرة، ولكنَّها لا شك تضيف إلى رصيد الأمة، فضلاً عن رصيد من قام بها، حتَّى يتحقق للأمة كلها الأمن والرخاء، قال أحمد ضاحكًا: وما علاقة الأمن والرخاء بالأخلاق؟

**الأخلاق والأمن القومي**

أجبته: إنَّها علاقة في مُنتهى القوة تلك التي بين الأخلاق والأمن القومي، "فإذا توفر الانهيارُ الخلقي بين أفراد المجتمع الواحد، فهذا سيَقتُل من أجل تحصيل مُخدِّراته، أو من أجل أنَّ أحدهم أغضبه بأمر مُهين، وآخر سيعتذر لنفسه لأجل سرقة أخيه، وثالث سيبرر اغتصابَه لامرأة بعدم قُدرته على الزواج، وغيرهم يأكل مالَ اليتيم؛ لصعوبة العيش، وأخرى تتبرج من أجل البَحْثِ عن زوج، فينهار الأمن بانهيار الأخلاق، وإذا تقدَّم المجتمع، وانحاز إلى الأخلاق، فهذا المجتمع يَملؤه الأمن، والغاية فيه لا تبرر الوسيلة، بل الغايةُ حميدة، والوسيلة محمودة"[[34]](#footnote-34).

**الأخلاق والحياة الطيبة**

فيتحقق الأمن بمعاييره القياسية في هذا المجتمع الخَلُوق، وقد حدث أنْ تولَّى عمر بن الخطاب القضاء في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - فمكث عمر  مدة من الزَّمان ليست بالقصيرة لا ترتفع إليه خصومات، ومن أين تأتي الخصومة لقوم إذا بَغَى أحدهم على أخيه سامحه، وإذا جاءه نَمَّام رَدَّه، وإذا أخطأ اعتذر وأصلح، وإذا أساء تاب وأحسن، فتحقق الأخلاق الحسنة الحياةَ الطيبة في هذا المجتمع، وقد قال الله - تعالى -: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97].

**الانحراف والحياة البائسة**

وأمَّا من رضيَ بسلوك طريق الانحراف مُبتعدًا عن منهج الإسلام مُتمردًا على خالقه - سبحانه - فإنَّ القلقَ سيكون حليفَه، والاضطراب هو حظه من الدُّنيا، وقد قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: 36]؛ "أي: هذا الذي تغافل عن الهدى نُقيِّض له من الشياطين من يُضِله ويهديه إلى صراط الجحيم"[[35]](#footnote-35).

فلا يستطيع حتى مُجرد التآلف والتكيُّف مع البيئة الاجتماعية المحيطة به، بل تجده عاجزًا عن مواجهة المشكلات التي تعترضه، "فشارب الخمر مثلاً، كما أثبتت التَّجارب في عِدَّة جامعات عالمية أنَّ كمية الخمر قد تكون قليلة جدًّا، ولكنها قادرة أن تحدث تغييرًا في التوازُن النفسي"[[36]](#footnote-36).

فينتج عن عدم التوازُن القلق المستمر، والاضطراب المُفرط، وعدم الثَّبات، "وقد أشارت دراساتٌ أخرى إلى أنَّ واحدًا من كل عشرين أمريكيًّا يقضي جانبًا من حياته في مصحَّ الأمراض العقلية، كما أثبتت الإحصاءات أنَّ القلقَ هو السبب الثاني للموت في أمريكا، وفي خلال سِنِي الحرب العالمية قضى داءُ القلق على مليوني نسمة.

وفي بعضِ الدِّراسات الميدانية التي أُجريت على المدمنين أنَّ نسبةَ مَن عندهم تأثُّر لأتفه الأسباب (9. 96 %)، وتوتر الأعصاب (8. 86 %)، والقلق المستمر (6. 88%)، والشعور بالكسل والخمول (5. 86%)، واضطراب النَّوم (5. 84%) والخوف الدائم (1. 70%)"[[37]](#footnote-37).

قال أحمد بصوت حزين: نعوذُ بالله من ذلك، لم أكن أعلم أنَّ الجانب الخلقي يُمثِّل كل هذه الخطورة، قلت: إنَّ الحقيقةَ - يا أحمد - أنَّ الجانب الخلقي هو المحرك الرئيسي للأمم، ولكن شرط أنْ تنبع من مَعين الإيمان، قال: وهل هناك مُحرك آخر للأخلاق غير طريق الإيمان؟ قلت: نعم، عند غير المسلمين الأخلاقُ نفعية؛ بمعنى: أنا أحسن إليك؛ لأنَّك تحسن إليَّ، أو لأجل تحقيق مصلحة من ورائك، أمَّا في ظلال الإسلام فتعاليمه تأمرنا بابتداء الناس بالخير، وأنْ نُحسن إلى مُحسنهم، ونتجاوز عن مُسيئهم، بل إنَّ الإيمان نفسه هو المخرج الأوحد من غيبوبة الانحراف الأخلاقي، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18].

معنى هذا أنَّ "أي سلوك خاطئ أو منحرف يقوم بإيقاظ الإيمان بالله، والعمل على زيادته في القلوب، فإذا ما استيقظَ الإيمانُ، فإنَّ الكثير والكثير من هذه السلوكيات سيزول تلقائيًّا دون الحاجة إلى وضع خطط علاجية، فإنَّ الإيمان هو دافع ذاتي إلى فعل الخيرات وترك المنكرات"[[38]](#footnote-38).

قال أحمد: صَدَقَ مَن قال: العلم نور، في الحقيقة كلَّما تُضَخُّ إلَيَّ هذه المعلومات، أشعر بمنتهى الفخر والرقىِّ، بل والحب لكلِّ شعيرة من شعائر الإسلام، ولكني أريدُ أن أبث لك أمرًا: في بعض الأحيان، وبالرَّغم من وجود هذه القُوى الفَعَّالة لمواجهة التحديات، وبالرَّغْم من الوُضوح الذي يُحيط بكل جزئيَّات الإسلام، أحيانًا يشعر الإنسان بالعجز، والعجز القاتل، كمريض بيده الدَّواء، ويعجز عن تناوله، فمثلاً في حديث النبي  لَمَّا سأل: ((من أصبح منكم صائمًا؟ ومن أطعم اليومَ مسكينًا؟ ومن عاد مريضًا؟ ومن تبع جنازة؟))، فقال أبو بكر: أنا، فقال : ((ما اجتمعت هذه الخصال قطُّ في رجل، إلاَّ دخل الجنة))[[39]](#footnote-39).

وأنا أتساءل بدوري: الصَّوم سهل ميسور، والمساكين كُثُر، والمرضى في كل بيت، والجنائز لا تُعَدُّ، وبرغم مَعرفة هذا الفضل أجدُ عجزًا من نفسي في فعل هذه الخيرات وغيرها، تجدني مُستيقظًا في اللَّيل إلى آخره، وعندي نشاط، ولا أقوم لأصلي، شعور قاتل بالعجز، أليس كذلك؟

قلت: إذا العجز لم يقتل، فما الذي يقتُل؟ ولكن ما رأيك أنْ تنفقَ هذه الدَّقائق في قراءة القرآن، وغدًا إن شاء الله نخرج من العجز إلى الإرادة والعمل، ارتحلنا مع القرآن، صلينا مع إمامنا، وانصرفنا إلى بيوتنا داعين ربَّنا: "اللهم إنا نعوذ بك من العجز والكسل"[[40]](#footnote-40).

**لمحة الإفراط في الإحساس بالعجز ينشأ عنه التفريط في إزالة العجز**

**د/ محمد إسماعيل المقدم[[41]](#footnote-41) حفظه الله**

**الفصل الخامس**

**نحو المعالي**

سماءٌ صافية في ليلةٍ أخرى من ليالي رمضان تُحفِّز المسلمين على الخروج إلى مساجدهم لصَلاة ليلهم، وصلت فيمن وَصَلُوا إلى مسجدنا، توجهت إلى مكان صلاتنا، ولكن عجبًا أحمد لا يَجلس في مكانه؟

إنَّها المرة الأولى التي أصل فيها إلى المسجد ولا أجده، ترى ماذا حدث؟ الحمدُ لله، ها هو سواكه النحيل وزجاجة عطره ذات الغطاء الذَّهبي يَجلسان في مكانه، لعله ذهب إلى وضوئه، انتصبت لأُصلي تحية المسجد، انتهيت من صلاتي، وقد أحسَست بأحمد يعود إلى مكانه، ما الذي يَلمع في وجه أحمد؟ إنَّها دموع، أحمد يبكي، السلام عليكم ما لك يا أحمد؟ قال: لا تقلق إنَّها دموعُ الفرح.

قلت: بَشِّرْنِي يا أخي، قال: منذ بدأت أشعر **بحلاوة الاستقامة** لم أردْ أن أستأثِرَ بها وَحْدي، فاتصلت بخطيبتي طالبًا منها أنْ تأتي لتشهد الخير معنا، فاستجابت، وكانت أول ليلة لها بالأمس، صليت هي وأمُّها، ثم انصرفتا، واليوم ذهبت أطمئِنُّ عليهما، وفوجئت بها تُوبِّخني، نعم وبَّختني، تعرف لماذا؟ قلت: لماذا؟ قال: لقد قالت لي: كيف تسمح لنفسك يا أحمد أن تكون في هذا الإحساس الرَّائع دونَ أنْ تشركني معك؟! ثم فاجأتني بما أثْلَج صدري، وجعلني أستحي من نفسي، قالت: إنَّما تريد أن تلبس النقاب، ثم قالت: لا بُدَّ - يا أحمد - أنْ نلتزمَ بكل ما يُرضي الله، ستكون هناك حدودٌ في كلامنا حتى موعد الزواج، فقد علمت - يا أحمد - أنَّ الخطبة في الإسلام مُجرد وعد بالزواج، وأريد منك أن تقودني إلى بر الأمان، قلت لها: أَعِدُك أن نقف عند حدود الله، وأن نتعاون على البر والتقوى، تركتها وأنا أحمد الله من كل قلبي، فكم كنت أحمل من هَمٍّ في إقناعها بهذه المعاني، وكل هذا نتاج ليلة واحدة "الحمد لله".

قلت: يا أخي، إنَّه الإيمان إذا خالطت بشاشتُه القلوب، أظنُّ يا أحمد أنَّ هذا الموقف رسالة بطرح العجز جانبًا ولتقوية الإرادة؟ قال: نعم، إنَّه حافز عالي الجودة، أظنُّنا سنبدأ في الحديث عن العجز الآن، قلت: وهذا موعدنا، ولكن بعد الصَّلاة إن شاء الله.

**\*\*\*\*\***

تَمَّت الصلاةُ والمسجد وساحات الصلاة ما بين داعٍ وباكٍ، فقد كان الإمام اليومَ مستبسلاً في تَحسين القرآن، فاجتمع جمالُ القرآن مع حُسن الصَّوت والإحساس في الأداء، فكأنَّ القرآنَ قد عانق قلوبَ المصلين، فخشعت، ولامس عيونَهم فدمعت، حتى الجدران كأنَّها كانت تُصلي معنا، فأصابها ما أصابنا، التفت إلى أحمد، وقد بلغ التأثُّر منه مبلغًا، قلت له: ما رأيُك نُؤجِّل الحديث للغد؟

قال: لا، خَيْرُ البر عاجله، أخبرني هل العجز مرض؟ قلت: نعم ومرض مُزمن، ألم تَرَ أن النبي - صلَّى الله عليه وسلم - كان يتعوَّذ منه؛ ((اللهم إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل))[[42]](#footnote-42)، والعجز يا أحمد مذموم بكلِّ لسان، وهو "ترك ما يَجب فعله بالتسويف، وهو عام في أمور الدُّنيا والدين، وهو مُصطلح قديم حديث، واصطلح على العجز حديثًا بمصطلح "اللافعليَّة"، أو "السلبية"، أو "التخلف""[[43]](#footnote-43)، ولكنَّنا نقابل خَلَلاً في التعامل مع العجز.

فمن الممكن أنْ يتعرَّض المؤمن لكسل عابر، أو عجز مؤقت، فيظل يُهوِّل من أمر العَجز، ويُلقي معاذيره بأنَّه لا يستطيع، وأن هذا الأمر فوق إمكانيته، حتى يتحوَّل العجز أو الكسل من عارض إلى مُزمن، والسبب هذا الإنسان الذي استسلم وأمرض نفسه بنفسه.

ومن سياسة التعامُل مع العجز أنْ يكون دون تهويل أو تهوين، "فالإفراط في الإحساس بالعجز ينشأ عنه تفريط في إزالة العجز"[[44]](#footnote-44)، أمَّا التهويل والتهوين، فلن يزيدا العجز إلا عجزًا، فعلاج العجز هو ترك العجز، ولا يكون هذا إلاَّ بالإرادة أو تقوية الإرادة.

وقوة الإرادة هي تهيُّؤ القلب بشدة وعزم لإحداث الفعل المقصود، أو عدم إحداثه، وأعظم من ضرب المثل في قوة الإرادة - بعد الأنبياء عليهم السلام - هم الصحابة - رضي الله عنهم - فكلُّ خير في الوجود لهم فيه السَّبق، ومن أعجب ما ذكر من قوة إرادتهم نَموذج زيد بن ثابت  ولندعه  يقص علينا خبره، قال : قال لي النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((إنِّي أكتب إلى قوم، فأخاف أن يزيدوا عليَّ أو أن ينقصوا، فتعلم السريانِيَّة))، قال: "فتعلمتها في سبعةَ عشر يومًا"[[45]](#footnote-45)، وانظر كيف استقبل زيدٌ  أَمْرَ النبي - صلى الله عليه وسلم - على تعلُّم هذه اللغة سبعةَ عشر يومًا قراءةً وكتابةً وتحدثًا، مع مراعاته لبيته وعبادته وتفقُّده لإخوانه... ولك أن تعلمَ - يا أحمد - أنَّ تعلمَ أي لغة في وقتنا الحاضر بطرق التدريس الحديثة والوسائل المعينة يستلزم على الأقل ثلاثة أشهر.

قاطعني أحمد قائلاً: ثلاثة أشهر نتعلم مستوًى واحدًا فقط، وليس الإحاطة بها كلها، قلت: نعم، لكنَّ زيدًا  أتقنَ اللغة في نصف شهر، إنَّها الإرادة ممزوجة بالإيمان، فزيد  لم يعتمد على إمكانيته الشخصية - وحسب - ولكن كان جُلُّ اعتماده على قوة الدَّفع الذاتية النَّاشئة عن مُحرك الإيمان، وعلى هذا الدَّرب سار نحو المعالي كلُّ الصالحين، فيُخبرنا ربُّنا عن دعائهم:  
﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]؛ أي: قدوة يُقتَدى بنا في الخير.

فهؤلاء لم يسألوا الله فقط أنْ يَجعلهم من المتَّقين، بل أنْ يَجعلهم قدوة وأئمة للمتقين[[46]](#footnote-46)، "وهذا مِمَّا جُبِلَ عليه الحر الكريم أن لا يقتنعَ من شرف الدُّنيا والآخرة بشيء مِمَّا انبسط له فيها مَن هم أسمى منه درجة أو أرفع مَنْزلة"[[47]](#footnote-47)، فيسمو هذا الخلق بصاحبه، فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور، "فهو الذي ينهض بالضَّعيف الذي يضطهد أو يُزدرى؛ إذ هو عزيز كريم، نعم يوردُ هذا الخلق صاحبَه مَوارد التَّعب والعناء، ولكنه التعبُ في سبيل الوصول إلى النهاية من معالي الأمور"[[48]](#footnote-48)، "والناظر في أحداث التاريخ من لدن آدم - عليه السَّلام - إلى يومنا هذا، فإنه يجزم أنه لا مكانَ فيه للعاجز القابع، وأن الثقات العاملين في سباق وتنافس للوصول إلى الغاية العُليا، وهي رضا الله تعالى"[[49]](#footnote-49).

بل حتى على صعيدِ العمل الدُّنيوي المجرد، إذا صاحبَ هذا العمل إرادة وقوة، تتغيَّر كل الحسابات، "وهذه قصة لشاب غفا أثناء حصة الرياضيات، واستيقظ على صوت الجرس يعلن انتهاء الحصة، ونظر إلى السبورة، وقام بكتابة المسألتين الموجودَتَيْن فوقها، وقد افترض أنَّها الواجب المدرسي لهذا اليوم، فعاد إلى البيت، وأَخَذ يَجتهد طيلة النهار والليل لحلها، ولم يستطع الشابُّ حَلَّ أي منهما، إلاَّ أنَّه واصل المحاولة وبقوة لبقية الأسبوع، وفي نهاية الأمر حَلَّ إحداهما، وذهب بها إلى الفصل، فلما رآها المدرس، أصابه الذهول، فقد اتَّضحَ أنَّ المسألة التي قام بِحَلها كان يفترض عدم وجود حل لها، وكان المدرس قد كتبها على السبورة من باب تعريف الطُّلاب ببعض المسائل التي لم يتوصل أحدٌ إلى حَلِّها"[[50]](#footnote-50).

إنَّ هذه القصة تُوضِّح بصورة مباشرة أنَّ الإرادة القوية هي مِفتاح الوصول للمعالي، وهنا قال أحمد: وهل لقوة الإرادة كل هذه الأهمية؟ لم أكن أتوقع ذلك، فما ثمراتُها؟ أجبته: "قوة الإرادة - يا أحمد - تُيَسِّر الصِّعاب، وبها تتخطى المشاق، وتُعين على أشرف العبادات، وتُساعد على النَّجاح في سائر الأعمال، وتَصنع العظائم، وتبعد عن الفوضى، وتُؤدي إلى سُرعة إنجاز الأعمال، وتأخذ بصاحِبِها إلى القناعة وعدم الأسى على ما يفوت، ويَكْبَحُ قَويُّ الإرادة غضبَه، ويُسيطر عليه قويُّ الإرادة، ويُحسن استخدامَ طاقَتِه"[[51]](#footnote-51).

تدخَّل أحمد قائلاً: لكن أليس من الممكن على قويِّ الإرادة أنْ تُغويه نفسه، فتخذله، فماذا يفعل؟ وكيف يُداويها؟ قلت: النَّفس بطبعها فيها تَمرُّد وفيها إقدام وإحجام تلومك مرة، وتأمُرك بالسوء مَرَّات، قال: فما السبيل إذًا؟ قلت: يُحاورها، نعم يُحاورها كلما ضعفت إرادتُها، وصغرت همتها يُحاورها، فكلما "سكنت نفسه عن كلال السير، ومواصلة الشد والرحيل، وَعَدَها قُرْبَ التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاط وفَرحة وهمة، فهو يقول: يا نفس، أبشري فقد قَرُبَ المنزل، ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإنْ صَبَرْتِ وواصلت السير، وصلت حميدة مسرورة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلاَّ صبرُ ساعة، فإنَّ الدُّنيا كلها ساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من دَرَجِ تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة فهو - والله - الهلاك والعطب، ولو كنت تعلمين فإنِ استصعبتِ عليه، فليذكرها بما أمامَها من أحبابِها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رجعت فإلى الأعداء رجوعها، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها، فإنَّهم وراءها في الطَّلب، ولا بُدَّ لَهَا من قسم من هذه الأقسام الثلاثة، فلتختر أيُّها شاءت"[[52]](#footnote-52)، هكذا يا أحمد، تُخبرها وتشعرها بالخطر إذا رضيت بسلب الإرادة، وأظنها ستقنع بمواصلة السير نحو المعالي، قال أحمد: صدقت والله، ولكن هل يسير المرءُ نحو المعالي دون سابق ترتيب أو دون غاية واضحة؟ قلت: يا أحمد، طريق المعالي كله غايات عالية يَخدم بعضها بعضًا، وأعظم غاية هي رضا الربِّ - سبحانه وتعالى - وقد يغيبُ عن مرمى البصر بعضُ الأهداف، ويظهر البعضُ وقد نَهتم بهدف على حساب آخر، فلا بُدَّ مع قوة الإرادة وجود أهداف عالية واضحة، وحسن تعامل مع هذه الأهداف.

قال أحمد: إذًا لا بُدَّ أن تساعدني في تهديف سليم للحياة، وأن نرسم خطوات واضحة لها، فأجبته: نبدأ سويًّا إن شاء الله في إعادة هيكلة حياتنا، ونَفْضِ الغُبار عن أهدافنا، لكن اسمح لي أنْ يكونَ هذا ابتداء من الغد، قال: نلتقي - إن شاء الله - السلام عليكم، أجبته: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

**قانون الهدف**

**سأل قطٌّ قطة: هل أخبرتِني بالطريق الذي أسلُكُه للخروج من هنا؟**

**فأجابت: دَعني أعرف أولاً إلى أين تريد الذَّهاب؟**

**الفصل السادس**

**بريق الهدف**

اضطراب وصخب يشقُّ سكون المصلين في سُجُودهم في الركعة الرابعة من صلاة التراويح، سلَّم الإمام واندفعت جموعٌ من المصلين نحو مصدر الصَّوت، سبحان الله! إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لا إلهَ إلا الله، كلمات ردَّدها بعضُ الناس، ما الخبر؟ قالوا: شابٌّ من إخواننا سقط ميتًا وهو يُصلي، تساءلنا: كم عمره؟ أجابونا: 25سنة، الله أكبر لعله كان مريضًا؟ جاء النفي، بل كان رياضيًّا مفتولَ العضلات، لم يشتكِ من عِلَّةً يومًا من الأيام، إنَّه موت الفجأة إذًا.

وتذكر بعضُ المصلين أحبابَهم الذين تَخطَّفهم الموت وهم شباب أصحاء، وتذكر بعضُهم كثيرًا من اللاَّعبين الذين ماتوا في ملاعِبِهم دون نذير من مرض أو شيب، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، جاءت سيارة الإسعاف حملت أخانا - رحمه الله - وانصرفت، عاد السكون إلى المصلين لا يقطعه إلاَّ هَمهمة مُستغفر أو دَعوة بحسن الخاتمة، قُمنا إلى الصلاة ولأول مرة يشعر المرء بشعور "صَلِّ صلاةَ مُودع".

فالجميعُ يستحضر أنَّ مَلَكَ الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وكان من الممكن أن يتخطى غيرنا إلينا، تَمَّتِ الصلاة في وجل، وأعلن الإمامُ أن جنازة هذا الأخ غدًا بعد صلاة الظهر من نفس المسجد، تواعد المصلون على حضور الجنازة، وانصرفوا بين مشفق على الميت ومُشفق على نفسه، نظرت إلى يَميني فوجدت أحمدَ مُطَأْطَأً رأسُه، هَمَمْتُ أنْ أترُكه في تأمُّلاته ودعواته، لكنه رفع رأسه قائلاً: اللهم ارزقنا حسن الخاتمة، ترى هل من الممكن أنْ نُوفَّق إلى ميتة جميلة كهذه، وتخرج أرواحُنا بين ركوعٍ وسجود في قيام اللَّيل في العشر الأواخر من رمضان، مُمكن؟

قلت: "وقد اعتراني من الأمل في حسن الخاتمة مثلما اعتراه" آمين نرجو ذلك من ربِّنا يا أحمد؛ إنَّ الله لا يُضِيعُ أجر مَن أحسن عملاً - المهم - أن نعيش لأجل غاية ونعمل على تحقيقها، ألم تَرَ إلى حَرَامِ بْنِ مِلْحَانِ  يومَ طعنه جَبَّار بن سَلْمَى بحربة بين كتفيه، فخرجت رأسُها بين ثديَيْه، فتناثر الدم على وجهه، وأوَّل كلمة نطق بها: فُزت وربِّ الكعبة، نعم، لقد أعلن فوزَه رغم فراقه للحياة، كأنَّما عاين تحقيقَ هدفِه الذي عاش من أجله، فلما تراءى له، فكأنه وصل إلى مُنتهاه، وحقق مسعاه، فضاع ألَم الموت أمام لَذَّة تحقيق الهدف الأسمى الذي هو رضا الله - سبحانه وتعالى.

قال أحمد: هكذا يَجب أن نعيش، ولكن هل لك أنْ تحدثني تفصيليًّا عن الهدف ومضمونه وعلاماته ومعناه؟ قلت: بالطبع يا حبيبي، فالهدفُ هو الغاية التي يُحدِّدها الإنسان - أي إنسان - لسعيه بعد بَحث وتأمُّل، فيُسَخِّر كُلَّ مُتاحٍ من إمكانيَّات ووقت ومَهارة لتحقيقه، قال أحمد: ماذا تقصدُ بأي إنسان؟ هل يشترك غيرُ المسلم مع المسلم في نجاح الهدف أو إخفاقه؟

أجبته: أحسنت يا أحمد، وأشكرك لدقة الملاحظة، نعم، أي إنسان إذا حدَّد لنفسه أهدافًا واضحة، وسخر إمكانيته ووقته وجهده من أجلها، فإنَّه ينالها، إنَّها السنن الثابتة التي لا تُحابي أحدًا، فكل من يَجتهد سيكون له جزاء اجتهاده وسعيه، وهذا في نطاق الأهداف التي تَخص شؤون الدُّنيا، أمَّا كل هدف يَخص الآخرة، فهو انفراد للمسلم، "وقد قام أحدُ الباحثين في إحدى الجامعات الأمريكيَّة بإجراء استفتاء لخريجي الجامعة، عام (1953)، وكان السُّؤال الذي وجهه إليهم هو "هل لك أهداف مُحدَّدة ومكتوبة"، وكانت النَّتيجة أن (3%) فقط من هؤلاء الخريجين وضعوا لهم أهدافًا محددة ومكتوبة عمَّا يريدون القيام به في حياتهم.

وبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ؛ أي: في عام (1973) رجع إليهم صاحبُ البحث؛ ليستطلع أحوالهم، فوجد أن هؤلاء (3%) حققوا نجاحًا في وظائفهم وأعمالهم أكثر مما حققه (97%) الآخرون مجتمعين"[[53]](#footnote-53).

كما يذكر أن كثيرًا من المشاهير في دُنيا الناس اليوم من غير المسلمين بدؤوا حياتهم بمعطيات صفرية، ولكنَّهم صحبوا معهم أهدافَهم، فكان لهم   
ما أرادوا، فمثلاً "ماردونا" لاعب الكرة الأرجنتيني أعلن وعمره 9 سنوات أنَّ هدفه أن يُحقق كأسَ العالم مع الأرجنتين، وأنْ أصبح أحسن لاعب، وقد كان، و"بيل كلينتون" الرئيس الأمريكي السابق أعلن وهو صغير فقير أنَّه يريد أن يكون رئيسًا لأمريكا، وقد كان.

"بيل جيتس" مؤسس شركة مايكروسوفت العالمية أعلن وعمره (20 سنة) في السنة الثانية في جامعة هارفاد أنه سيصبح مليونيرًا عندما يصل إلى الثلاثين من عمره … وقد كان"[[54]](#footnote-54).

نعم يا أحمد، لك أن تتعجب أنَّ هؤلاء الناس ليسوا من المسلمين،   
ولكنَّهم حملوا أهدافًا سعوا في تنفيذها، فكان لهم ما أرادوا، ولكن من المهم جدًّا أن نعلم أن الله قد خفف عن المسلمين، خفَّف عنَّا مشقة التحديد، وأمرنا بالتحقيق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، فكان من جملة الأهداف الموت على الإسلام وسبيل تحقيق تقوى الله - سبحانه وتعالى.

قال أحمد: وكأنَّك تقول: إنه لا إنجازات دون وجود أهداف؟ فأجبته: نعم يا أخي، فماذا سينجز الإنسان إن لم يكن هناك هدف لينجزه، وهذا على الصَّعيدين صعيد الحياة الدنيا والآخرة، فوجود الهدف هو العامل المشترك بين الناجحين على اختلاف توجهاتهم، بل إنَّ وجودَ الهدف وتحديده على نحو جيد يعطينا الكثير من التركيز وعدم التشتت والثَّبات، وهو بِمَثابة المحرض على الاستمرار في الحياة، وفي حالة غياب الهدف ينتج عن هذا التشتت والعشوائية التي تعج بها الحياة.

قال أحمد: وكأنَّ الحياة ليس لها معنى من دون الهدف الذي ينير الدنيا؟ فلماذا نعيش بلا أهداف؟ فأجبته: نعم يا أحمد، إنَّ أولَ هذه الأسباب النَّظر عند مواقع الأقدام، وعدم التفكير في المستقبل، وأين أنا غدًا؟ ثم النَّظر إلى الذَّات بعين الاحتقار والرُّؤية التشاؤمية للواقع والمستقبل ومبدأ (لا فائدة) مع طول الأمل واللامبالاة، أضف إلى ذلك الدونية والرِّضا بتوافه الأمور، هذه أعظم الأسباب التي تحول بيننا وبين تهديف الحياة.

قال أحمد: أريد منك أن تطرح عليَّ صورة عملية لوضع الأهداف مهما كان دنيويًّا وأخرويًّا، أجبته: "خمسة أسئلة هي بمثابة بلورة لتحديد ما نَحتاج إليه من أهداف...".

\*\* أين أنا الوضع الراهن.

\*\* ماذا أريد الهدف

\*\* متى أبدأ المدة الزمنية (لقتل التسويف).

\*\*كيف أنجز؟ وسائل النجاح في مواجهة التحديات.

فالإجابة عن هذه الأسئلة توضح ملامح أهدافك مع مُراعاة مُلاحظة مهمَّة جدًّا أنَّ الأهداف كلها ليست بمكانة واحدة، بل هناك درجات مُتباينة للأهداف، فيتعرف صاحبُ الهدف على أولويَّاته وبما يبدأ، فلا يقدِّم ما من حقِّه التأخير، ولا يُؤخِّر ما من حقه التقديم، كما يَجب على صاحب الهدف أنْ يتعرف على خير الخير وشر الشر.

فهناك أهداف سامية كبرى هي أعظم أهداف في الحياة وأهداف متوسطة أو مرحلية تخدم الهدف الأكبر، وأخرى جزئية فرعية، وهي عبارة عن تقسيم الأهداف الكبرى، وتتميَّز بأنَّها تفصيلية، وقتها صغير ويسهل إنجازها، كما يَجب أن نتعلم أن نخطط لأهدافنا على الأوراق قبل صياغتها عمليًّا، وفائدة هذا يا أحمد، "أنَّ الخطأ على الأوراق أهون بما فيه من الخطأ في الواقع"[[55]](#footnote-55).

قال أحمد: أظنُّ أن الطبيعي أن نَجد عوائقَ على طريق تحقيق أهدافنا، فما هذه العوائق والعقبات؟

أخطار حول الهدف

لا بُدَّ أن نعلم أولاً - يا أحمد - أنَّ المسلم الغاية عنده لا تبرر الوسيلة، فالهدف حميد، والوسيلة مَحمودة، وأمَّا عن الأخطار والعقبات التي تحيط بنا أو تصيبنا أثناء تحقيق أهدافنا، فمنها ما يخرج الهدف عن إطاره، ومنها ما يُوهن الهدف ويعرقله، ومن هذه العقبات، بل إنْ شئت فقل: من أخطرها جعل الوسائل أهدافًا، فنتعامل مع الوسيلة على أنَّها هدف منشود، فمثلاً الجهاد في سبيل الله من الخطأ البالغ جعله على أنَّه هدف لذاته، بل هو هدف مرحلي، ووسيلة لتحقيق رضا الله - سبحانه وتعالى - وكذلك لذة الإيمان ليست هي الهدف، إنَّما الهدف رضا الله، وحصول اللَّذة تَبَعٌ، وليست هي الأصل، والمسلم يوجه جميعَ مناشطه نحو هذه الغاية العُظمى؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162 - 163].

وثاني هذه العقبات التي تعترض أهدافنا عدمُ إدارة الوقت، وترك الأمر حسب الظُّروف، وهذا من الخطر بمكان، "بل مُمكن لنا أنْ نقولَ بأن ليس هناك ناجحون في الحياة على نَحو ظاهر لا يَهتمون بأوقاتِهم، وكيف للمَرءِ أن ينجحَ في تحقيق أهدافه، وهو لا يستغل أهمَّ مورد يُمكن الاستفادة منه في تحقيق النَّجاح، وقد أقسم الله - عزَّ وجلَّ - بالليل، والنهار، والضُّحى، والعصر، والفجر؛ تذكيرًا للناس بنعمة الزمن، وتبيانًا لقيمته العظيمة، وها هو ابن مسعود  يُترجم لهذا المعنى قائلاً: "ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت فيه شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزد عملي".

إنَّ المشكلةَ الكبرى أنَّ الوقتَ لا يُدار، وهو - كما قالوا قديمًا - لا ينتظر أحدًا، فإدارة الوقت إذًا ليسَ أن نعملَ بجهد أكبر، بل أنْ نعملَ بذكاءٍ أكثر؛ لتحصيل أهداف أعلى"[[56]](#footnote-56).

وتكمُن عقبة أخرى على طريق تَحقيق أهدافنا من قناعة خاطئة عند البعض بمُسلَّمات باهتة، مثل: "أنا ضعيف - لا فائدة - سيبقي الأمر على ما هو عليه... إلخ"، وهي توصيف سلبي للواقع، بل من الواجب لصاحبِ الهدف أن يكون إيجابيًّا تُجاه كل معلم من معالم الحياة، وهناك ضابط مُحكم في مسألة الهدف، وجب علينا أن نعلمه، ألاَ وهو أن وضع الهدف سعيٌ، وتحقيقُ الهدفِ توفيقٌ؛ ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: 88].

***وكأنَّ للحياة شكلاً آخر؛*** قال أحمد متفائلاً: أظنُّ أنَّ شكلَ الحياة سيتغيَّر إلى خلاف ما نراه بعد تهديفها؟ أجبته: نعم، فمن كانت حياته سوداء ستتحول إلى بيضاء، ومن كانت أيامه بيضاء، ستصبح ناصعة البياض، بل الأجمل أنَّ العمرَ نفسه ستتغير مقاييسه، فعدَّاد العُمر الموجود الآن يَعُدُّ الساعات والشُّهور والأعوام، ففلان ما زال في الثلاثين، وفلان عاش تسعين، وهكذا العدَّاد يشكل شكل الحياة، لا روحها، ولا مضمونها، ولا قيمها.

أمَّا العدَّاد بعد وجود الأهداف وتحقيقها يَجب أن يعد الأعمال والمنجزات، إن الحياة الطويلة ليست بالضرورة هي الحياة الجيدة، والحياة القصيرة ليست بالضرورة هي الحياة التي تستحق العويل والرثاء.[[57]](#footnote-57)

وقد رأينا أنَّ كثيرًا من علماء المسلمين ممن لم يعمِّر من حيث طول العمر، إلاَّ سنوات معدودة، فالإمامُ النووي مثلاً ملأ الدُّنيا علمًا مُقارنة بعمره، لكن عمره كان عريضًا بمعنى أنَّه كان مليئًا بالإنجازات، ومات في الخامسة والأربعين من عمره، ومن المعاصرين الشيخ/ حسن البنا - رحمه الله - توفي عن عمرٍ لا يتجاوز الثلاثَ والأربعين سنة، لا يتوازي بأي حال من الأحوال مع ما قام به من إصلاح في المجتمع.[[58]](#footnote-58)

فما يستحق الاهتمام إذًا، بل والاغتباط أيضًا ليس طول العمر، ولكن خيرية الأهداف والأعمال التي ننجزها فيه، إنَّ مَلْأَنا لحياتنا بالأعمال التي تنفعنا في الدُّنيا، ونجد آثارها في الآخرة هو الذي يَجعل حياتنا تطول وتطول، إنَّها تطولُ بالسَّعادة التي يتركها تحقيقُ الهدف في نفوسنا، وتطول بالأجر الذي ننتظره من الله - جلَّ وعلا - يوم لا ينفع مال ولا بنون.[[59]](#footnote-59)

وكلُّ هذه المعاني - يا أحمد - تدفعُنا إلى مسح الحزن على موت أخينا، أو بالأحرى تغيير النَّظرة لموته - رحمه الله - فبدلاً من نظرة أنَّه لم يتجاوز الثلاثين، ويا ضيعة عمره إلى توجيه النَّظر إلى ما وُفِّقَ إليه من إنجاز الميتة الحسنة، فلعلَّ عمره  
 ليس من النوع الطويل، لكنَّه - إن شاء الله - من النَّوع العريض؛ قال أحمد: صحيح، لا بُدَّ أن نعيدَ توجيه أهدافنا، والعمل على تحقيقِها، ولا نترك الدُّنيا - إن شاء الله - إلاَّ وأهدافنا مراميها محقَّقة، ولكنَّ السؤالَ: هل نكتفي في طريقنا للهدف الأسمى "رضا الله - سبحانه" بما نتعبَّد به لله من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وحجٍّ، أم إنَّ هناك عبادات غيرها تساعد على تَحقيق أسمى أمانينا وأعلى أهدافنا؟ أجبته: لا شَكَّ - يا أحمد - أنَّ ما ذكرته من عبادات هي من أركان الإسلام، ولكن مفهوم العبادات أوسع وأشمل، فما رأيُك لو تقابلنا غدًا في الجنازة - إنْ شاء الله - فنتحدث عن ذلك؟ هل ستأتي؟ قال: نعم، ولا شك، وبالله عليك لا تنسي الدُّعاء لأخينا بالمغفرة والرحمة، أراك غدًا إن شاء الله.

السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أجبته: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

**العبد وصورته**

سُئل أحد الحكماء: ما الفرق بين الأسد وصورته؟

أجاب: هو الفرق بين الأصل والصورة.

فلا فاعلية لصورة الأسد، ولا أحد يخاف منها، ومثلها لا فاعلية لصورة العبد، وإنَّما الفاعلية للعبد الحقيقي...

**الفصل السابع**

**من أجل عبد حقيقي**

الشمس تنتصف السماء فوق رؤوس مَن تَبِعَ جنازة أخينا المتوفَّى ليلة أمس، الكلُّ يقفُ في خضوعٍ، كأن على رؤوسهم الطير، يبذلون الدُّعاء بالتثبيت عند السؤال، وبعد مرور ذبحِ شاة وتوزيعها بدأ الناسُ يَخرجون شيئًا فشيئًا، وأخونا في قبره سمع قرعَ نعالِنا، انتهينا إلى خارج المقابر، وكأنَّ أهلها ينادون: لا تنسونا من صالح دعائكم، تأبَّطت يد أحمد، فبادرني: كانت جنازة مهيبة؟ أجبته: نعم، لقد ذكرتني بمقالة محمد بن عبدالمنكدر - رحمه الله -:

لقد أدركتُ أقوامًا في الجنائز كلُّهم متوشِّح ثوبَه يَبكي، فلا تدري من تُعزِّي، وكلهم لا يعرف الميت يبكون على أنفسهم، قال: سبحان الله! قلوب نقية، قلت: إنَّها العبودية الحقيقيَّة - يا أحمد - في كل درب من دروب الحياة، علم القومُ ما خلقوا له، فبادروا أنفسَهم بالأعمال، فكانوا عبادًا حقيقيِّين لا صورًا... قال: وهل هناك عبد حقيقي، وآخر صورة عبد؟ قلت: نعم، هناك عبدٌ على مُراد نفسه، يكتفي من العبادة بصورتها، فأصبح عبدًا صورة، وعبدٌ على مُراد الله، ممدوح بكل لسان، وفي أي زمان، بل إنَّ الله - عزَّ وجلَّ - إذا امتدح أحدًا في خُلُقه، وَصَفه بالعبودية، كقوله - تعالى - عن نبيه داود - عليه السَّلام -: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17]، وعن سليمان - عليه السَّلام -: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30].

كما وصف رسولنا - صلى الله عليه وسلم - بهذه الصفة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]، معنى ذلك - يا أحمد - أنَّ العبودية هي الصفة التي يُحب الله - عزَّ وجلَّ - أن تتمثَّل في عباده، قال أحمد: فما هي إذًا العبادة أو العبودية؟ قلت: العبادة في اللغة هي الطَّاعة، وهي أيضًا كمالُ الحب، مع كمال الذُّل، وكمال الانقياد.

وكلٌّ من المعنَيَيْن لا بُدَّ منه؛ حتى يصحَّ معنى العبادة، وإلاَّ أصبحت صورة، ولم تصح ولم تقبل، فإذا كان الإنسانُ مُحبًّا دون طاعة أو انقياد، أو دون أن يرى نفسه خاضعًا ذليلاً، فمثل هذا لا يكون بذلك عبدًا، وقد عرف شيخ الإسلام ابن تيمية العبادة بأنَّها اسمٌ جامع لكل ما يُحبُّه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، ويفهم من هذا - يا أخي - أن هذا يشمل كلَّ فعل يُحبُّه الله، وترك ما يبغضه قولاً وفعلاً ظاهرًا وباطنًا[[60]](#footnote-60).

فالعبادات إذًا منظومة متكاملة، ولكي تؤدي هذه العبادة دورها في إصلاح الحياة لا بُدَّ من حضور القلب وتفاعُله معها، قاطعني أحمد: هل معنى ذلك أنَّ هناك عبادات للجوارح وعبادات للقلوب؟

أجبته: نعم، يا أحمد، وهنا يكمُن الفارق بين العبد وصورته، "فالعبادة التي نُؤديها بالجوارح ما هي إلاَّ شكل ووعاء يتم من خلاله إظهارُ العبودية لله - عزَّ وجلَّ - من ذل، وانكسار، وافتقار، وحب، وخوف، ورجاء، وخضوع، واستكانة، فالزَّكاة التي طالبنا الله بها تظهر مدى حبِّنا لله - عزَّ وجلَّ - ومدى انتصار هذا الحب على حبِّ المال، الذي تعشقه النَّفس، والصَّلاة تظهر التواضع والانكسار والخضوع له – سبحانه - أمَّا الحج فيظهر مدى استسلامنا وانقيادنا لأمره جل وعلا"[[61]](#footnote-61).

واعلم - يا أحمد - أنَّ "مجرد القيام بأعمال الجوارح من غير حضور ولا مراقبة ولا إقبال على الله قليل المنفعة دُنيا وأخرى"[[62]](#footnote-62)، معنى هذا - يا أخي - أنَّ عمل القلب مقدم على عمل الجارحة، لكن تحقيق الكمال في كليهما مطلوب، ولكن الخلل الذي يعترينا هو تهميش العبادات القلبيَّة، وجعلها فرعًا، وهي أصل أصيل.

قال أحمد: لا بُدَّ أن نطوفَ في رياض العبادات القلبيَّة، فنشم عبيرها، ونتعرَّف على زهورها، ونجني ثمارها؟ قلت: كم أنا محتاج لهذا والله يا أحمد! فلْنَنطلق في ربوع هذه الرياض، هيا يا أحمد، أعطني قلبك، ابتسم أحمد ابتسامة رقيقة، ثم قال: ها هو على مصراعيه.

الحب هو الحب:

قلت: إنَّ أول عبادة قلبية نتحدث عنها "هي الحياةُ التي من حرمها، فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده، فهو في بحار الظُّلمات، والشِّفاء الذي من عدمه، حَلَّت بقلبه جميعُ الأسقام، واللَّذة التي من لم يظفر بها، فعيشُه كله هموم وآلام، فهي روحُ الإيمان والأعمال"[[63]](#footnote-63) عن مَحبة الله نتحدث يا أخي، ولك أنْ تعلمَ - يا حبيبي - "أنَّ المحبةَ لا توصف ولا تُعَّرف، إنَّما يعرفها من وجدها وذاقها، وهذا لأن كلمة الحب أصلاً لا تَحتاج لشرح، **فالحب هو الحب**، وهو أمر يَجده الإنسان في قلبه، فيعرفه ويعرف معناه"[[64]](#footnote-64).

فالمحب - يا أخي - عبد مُتصل بربِّه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، فإذا تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله، ولله، ومع الله، ما أطيبَ حياةَ هذا العبد الذي همه كله في الله، وحبه كله له، وشوقه إليه، وقصده له، وأفكاره تحوم على مَحابِّه ومَرَاضِيه، يرجو لقاءَ ربِّه، فعلم به مولاه فناداه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 5]، وفي هذا تعزية للمشتاقين، معناه: أنِّي أعلم أنَّ اشتياقكم إليَّ غالب، وأنا أجَّلْت للقائكم أَجَلاً، وعن قريب يكون وصولكم إليَّ"[[65]](#footnote-65).

قال أحمد: هنيئًا له هذا المحب الصادق، ولكنَّ المُدَّعين كثيرٌ، فهل هناك علاماتٌ يطمئنُّ بها المحب على صدق حُبِّه؛ أعني: علامات لحب العبد لربِّه؟ أجبته: نعم، يا أحمد… لما كانت المحبة خفية في القلب سهل أن يدعيها كلُّ أحد؛ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: 18]، فما أسهل الدعوى! وأعز الحقيقة! فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان، وخداع النفس إذا ادَّعت نفسُه مَحبة الله ما لم يَمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، ومن هذه العلامات كما استبان لنا من حال المحب حب لقاء الله – تعالى - فإنَّه لا يتصور أن يحب القلب محبوبًا إلاَّ ويُحب لقاءه ومشاهدته، فقال: سيد المحبين - صلَّى الله عليه وسلم -: ((من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه))[[66]](#footnote-66)، فالمحب الصادق يذكر محبوبه دائمًا والموعد الذي بينهما للقاء.[[67]](#footnote-67)

ولما ادَّعى قومٌ مَحبة الله، ابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، فمن علامات حب الله "أن يتبع هذا المحبُّ الرسول  فالذي يقول: أحبُّ الله، وهو يبتدع البدع، ويُخالف السنة - غيرُ صادق في دعواه، فالذي يُحب الله حقًّا يتبع الرسول  فيبحث عن سنته، ويتبعها ظاهرًا وباطنًا في الهيئة والأخلاق، والعبادة والسلوك، وفي كل أمره، فالحبُّ إن توافقه في كل خصاله … وإلاَّ…"[[68]](#footnote-68).

وهذا المحب - يا أحمد - من أمارته أنْ يأنس بعبادة ربِّه - جل وعلا - فيواظب على التهجُّد، ويغتنم هدوء الليل؛ ليخلو بحبيبه - سبحانه وتعالى - فمن كان النوم والاشتغال بكلام الناس ألذَّ عنده من مناجاة الليل، فكيف تصحُّ مَحبته، ومن شيم هذا المحب أيضًا أنه لا يَرى لنفسِه فضلاً، ويستقل في حق محبوبه جميعَ أعماله، ولا يراها شيئًا، فلا يراها قطُّ إلاَّ بعين النَّقص، ويرى شأن محبوبه أعظمَ من كلِّ ما عمل من أجله وأعلى قدرًا، فلا يرضى بعمله، بل يخشى أنه ما وفَّى حقَّ محبوبه، بل ويتوب إليه من النقص.

ليس الشأن أن تحب:

قال أحمد: هذه علامات واضحة تُطمئن العبد على أنَّه في الطَّريق الصحيح لحب ربِّه، فهل من علامات تدُلُّ على حب الله للعبد؟ أجبته: أحسنت - يا أحمد - فليس الشأن أن تُحِب، إنَّما الشأن أن تُحَبَّ، فإذا أحبَّ الله هذا العبد، فيا لها من سَعادة غامرة، إنَّ هذا العبد المحبوب المحب أُولِيَ علاماتِ حب الله له أنَّه موفَّق، أموره مُيسرة، له قَبول في الأرض، تَميل له القلوبُ، وتُثني عليه الألسن، وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة  قال: قال رسول الله : ((إنَّ الله إذا أحب عبدًا، نادى: يا جبريل، إنِّي أحب فلانًا فأحبه، فيُحبه جبريل، ثُم ينادي جبريل في أهل السماء: إنَّ اللهَ يُحب فلانًا فأحبوه، فيُحبه أهل السماء، ثم يوضع له القَبول في الأرض))[[69]](#footnote-69).

وتخيل يا أحمد أنَّ مِن علامات حب الله للعبد أنْ يبتليَه، وفي الحديث أنَّ النبي  قال: ((إنَّ عظمَ الجزاء من عظم البلاء، وإنَّ الله إذا أحب قومًا، ابتلاهم، فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط، فعليه السخط"[[70]](#footnote-70)، فيبتليهم بأنواع البلاء؛ ليطهرَهم من الذنوب، ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدُّنيا غيرة منه عليهم، نعم يَغَار - سبحانه - أن يشتغل العبد الذي يُحبه بغيره، وهذا الابتلاء على قدر الإيمان؛ لذا كان أشد الناس بلاءً الأنبياء، فيبتليه محبة وإحسانًا، ثم إذا قدر عليه الموت، أماته على عمل صالح أمارة منه على حبه لهم، كما جاء في الحديث: ((إذا أحب الله عبدًا عَسَلَه))، قالوا: وما عسله؟ قال: ((يُوفِّق له عملاً صالحًا بين يدي أجله، حتى يرضى عنه جيرانه ومن حوله))[[71]](#footnote-71)، فيرى هذا العبد المحبوب المحب هذه العلامات، فلا تزيده لربِّه إلاَّ حبًّا وقربًا؛ ليحيا حياة لم يحلم بها هو، ولا أحد من العالمين، إلاَّ المحبين، قال أحمد بعين كلها الحب: وهل هناك عبادات أخرى تشترك مع الحب في القلب، نستطيع أن نَشمَّ عبيرها، كما تعطرنا بالحب؟ قلت: نعم، يا أخي، إنَّ أعمالَ القلوب فواحةُ الشَّذا، وهي مُتوفرة حتى يَمتلأ القلب وينصلح... وبعد التراويح - إن شاء الله - نستعرض عبادة أخرى من عبادات القلوب، أراك بخير، السلام عليكم أيها المحب.

**\*\*\*\*\***

**إلهي وسيدي**

**حُرِمْتُ مُنَايَ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا وَإِنْ كُنْتُ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِكَ أَفْرَحُ**

**وَإِنْ كَانَ شَيْءٌ فِي الْوُجُودِ سِوَاكُمُ يُقَرِّبُهُ الْقَلْبُ الْجَرِيحُ يُفَرِّحُ**

**إِذَا لَعِبَتْ أَيْدِي الْهَوَى بِمُحَبِّكُمْ فَلَيْسَ لَهُ عَنْ بَابِكُمْ مُتَزَحْزَحُ**

**وَإِنْ أَدْرَكَتْهُ غُرْبَةٌ عَنْ دِيَارِكُمْ فَحُبُّكُمُ بَيْنَ الْحَشَا لَيْسَ يَبْرَحُ**

**هَوَى غَيْرِكُمْ نَارٌ تَلَظَّى وَمَحْبَسٌ وَحُبُّكُمُ الْفِرْدَوْسُ بَلْ هُوَ أَفْسَحُ**

**فَيَا ضَيْمَ قَلْبٍ قَدْ تَعَلَّقَ غَيْرَكُمْ وَيَا رَحْمَةً مِمَّا يَجُولُ وَيَبْرَحُ**

**قال : ((من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنازل، ألاَ إنَّ سلعةَ الله غالية، ألاَ إنَّ سلعة الله الجنة))[[72]](#footnote-72).**

**الفصل الثامن**

**من خاف سلم**

انقضت صلاةُ التراويح في ليلة ملأها السكونُ، وانصفَّ المصلون كذلك في سكون، وجاءني أحمد يَحمل في يَمينه كُتيِّبًا صغيرًا، سلم ثم قال: ما رأيُك في هذا الكتاب الجميل؟ تناولته منه، وما أنْ وقع بَصَري على عنوانه حتى انفرجت أساريري، لقد كان عنوان الكتاب "شرح الأسباب العشرة الموجبة لمحبه الله"[[73]](#footnote-73)، رد عليَّ ابتسامتي بابتسامة مُشرقة قائلاً: هذا هدية تُعينك على زيادة مَحبة الله في قلبك، قلت: أنا في غاية السُّرور، هذه أجمل هدية تلقيتها، أشكرك من كلِّ قلبي، قال أحمد: أرجو من الله أن تنتفع به كخُطوة على طريق حب الله، ولكن اسمح لي أنْ أسأل عن أيِّ عبادة قلبية نتحدث اليوم؟

أجبته: نتحدَّث عن "سوط الله الذي يسوقُ به عبادَه إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بها رتبة القُرب من الله - عزَّ وجلَّ - وهو سراج القُلوب، به يُبصَر الخير من الشر، نتحدَّث عن الخوف الذي هو تألُّم القلب واحتراقه؛ بسبب توقع مكروه في المستقبل، قال أحمد: ولِمَ أعَرِّض نفسي للخوف الذي يُؤلم قلبي؟ إذا أحسست بالخوف سأهرب، قلت: وهذا ألطف سر في الخوف - يا أحمد - أنَّ كل أحد إذا خفته، هربتَ منه، إلاَّ الله - عزَّ وجلَّ - فإنَّك إذا خفت منه، هربتَ إليه، فالخائفُ هارب من ربِّه إلى ربه، لا يخاف لمجرد الخوف؛ بمعنى أنَّه ليس المقصود أن نخاف من أجل أن نخاف، بل نخاف؛ ليكونَ الخوف وسيلة لتصلح أحوالنا، فمن خاف اليوم أمن غدًا، ومن أمن اليوم، خاف غدًا.

قال أحمد: وهل هنالك حدٌّ لهذا الخوف؟ أجبته: نعم، نعم، يا أخي، وحدُّ الخوف الواجب هو ما حَمَل على أداء الفرائض، واجتنابِ المحارم، فإنْ زادَ على ذلك بحيث صار باعثًا على التشمير على نوافل الطَّاعات، كان محمودًا أيضًا، فإنْ تزايد الخوف بحيث أدَّى إلى مرضٍ، أو هَمٍّ لازمٍ، أو قعود عن العمل، لم يكن خوفًا محمودًا، وهذا هو حد الخوف.

قال أحمد: فلنفترض أنَّ العبدَ مستقيمٌ ملتزم، فمن أيِّ شيء يخاف؟ أجبته: إن هذا العبد المستقيمَ يخاف أكثر من غيره، فكلما ازدادت معرفة العبدِ بربِّه، ازداد خوفُه من مولاه - سبحانه - قال أحمد: وممَّ يخاف؟! قلت: هذا العبد الطيب يخاف من عدم قبول عمله، ويخاف من سوء الخاتمة، ويخاف من نقصان الدرجة.

وأما إن كان مائلاً منحرفًا عاصيًا، فخوفه من سوء فعله، وينفعه ذلك مع النَّدم والإقلاع لا مع الاستمرار والإصرار على الذنب.[[74]](#footnote-74)

فالخائف المستجير هو الذي يَمنعه الخوف من الذُّنوب والمعاصي، بل من خاف الله حقًّا "أمَّنه الله ممن سواه، بمعنى أنَّه كلما ازداد الخوف، وعظم في القلب العبد، زال منه الخوف ممن سواه، ولذا فهذا الخوف يكون معه سعادة وسرور، مع كونه يزعج الإنسان، ويُخوفه من موقفه بين يدي الله - تعالى - غدًا، إلاَّ أنَّه دليل الإيمان؛ ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]، وجعل - سبحانه - أصحاب هذا الخوف الصادق أصحاب أعلى المقامات؛ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46]، فمدح الله مَن خاف مقام ربِّه، ووعده بالجنة التي يأمن فيها"[[75]](#footnote-75).

فعاقبةُ الخوف مَحمودة ﴿جنتان﴾، ورضا الرَّحمن والنَّجاة من النِّيران، والعيش في أمان، وإنَّها دعوة للخوف، ولكنَّه الخوف في أبهى صُوره، الصورة التي تبني ولا تَهدم، فما رأيُك يا أحمد، هل ستسلك طرق الخائفين؟ أجابني: بل سأعيش فيه؛ ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: 8]، قلت: نسأل الله أن يرزقنا خشيته في الغيب والشهادة، ولكن اعلم - يا أحمد - أنَّ للخوف جناحًا آخر لا ينفكُّ عنه قد قرن الله - عزَّ وجلَّ - بينهما، فقال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: 56].

أرجوك مولاي:

"فالله - عزَّ وجلَّ - أمرنا بالدُّعاء المقترن بحال الخوف، وحال الرَّجاء؛ أي: وادعوه وأنتم خائفون طامعون في فضله، فالرَّجاء - يا أخي - أن تكون مستبشرًا طامعًا في جُود الله، وفضله، وكرمه، ومَنِّه، مع بذلِ الجهد، وحسن التوكُّل، فتبذل جُهدَك ما استطعت في الطاعة، وتتوكل على الله في الوصول إليها، مع كونِك ترى أن ما قدمته من طاعة عمل ضعيف لا يستحق القَبول، لكنك تطمع في كرمه - عزَّ وجلَّ"[[76]](#footnote-76).

وهنا قال أحمد: هل معنى ذلك أنَّ الرجاءَ هو الأماني التي يتمنَّاها الإنسان ويسعى في تحقيقها؟ أجبته: لا، واحذر - يا أحمد - هنالك فرقٌ شاسع بين الرَّاجي مع كونه يرى عيوب عمله، ويطمع في القَبول، وبين المتمني الذي يرى نفسه أدى ما عليه وزيادة، فالرغبة والاستبشار ليسا رجاءً، وإنَّما هو التمني الذي ذَمَّ الله المنافقين لأجله؛ ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: 14]، وقد بين صفتهم الحسن البصري - رحمه الله - فقال: "كم من أناس خرجوا من الدُّنيا ولا حسنة لهم! يقولون: نحسن الظن بالله - كذبوا - لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل".

فحُسن الظنِّ أن تعلم أن الله يثيب المؤمنين ويُحبهم، ولك أن تتخيل - يا أحمد - الفرق بين الراجي والمتمني: "هناك رجلٌ أراد التوجُّه إلى القاهرة، فاستقلَّ القطارَ إلى مرسى مطروح، ولكنه لم يزل يدعو طوال الطريق: اللهم بلغني القاهرة، اللهم أوصلني إلى القاهرة، يُحدِّث نفسه أنَّه سوف يصل إلى القاهرة، ويقول: إن شاء الله أصلُ إليها، فنحن نحسن الظن بالله، فهذا هو المتمني.

أمَّا الراجي، فهو الذي يأتي قبل الموعد، ويركب القطار المتوجِّه إلى القاهرة، ويقول: إن شاء الله نصلُ إلى القاهرة، اللهم بلغنا القاهرة، برجاء ألاَّ يتعطَّل القطار فلا يستطيع الوصول، فهو يرجو أن يوصله الله إلى غايته، فهذا راجٍ، والآخر مُتمنٍّ"[[77]](#footnote-77).

فالرجاءُ - يا أخي - ضرورةٌ للمسافر إلى الله - تعالى - لو فارقه الرجاءُ لحظة تَلِفَ أو كاد يَتْلَفُ؛ لأنَّ المسلم يدور ما بين ذنب يرجو غفرانَه، وعيبٍ يرجو إصلاحَه، وعملٍ صالح يرجو قَبوله، واستقامةٍ وهدايةٍ يرجو حصولَها وثباتَها، وقربٍ من الله يرجو الوصول إليه.

وهو "أثناء سيره إلى ربِّه له نَظَران: نظر إلى نفسه، وعيوبه، وآفات عمله من العجب والرِّياء، والاغترار بالعمل، وهذا يفتح عليه بابَ الرجاء، وهذا هو النظر الثاني، ولا بُدَّ يا أخي من الموازنة بين الخوف، فهما جناحان لطائر محلق"[[78]](#footnote-78).

قال أحمد: إذًا متى أعلو بجناح الخوف؟ ومتى أرفع جَنَاحَ الرَّجاء؟ ومتى أُرَفْرِف بكليهما؟ أجبته: تعلو بجناح الخوف، وتعلو دون الوصول إلى اليأس من رحمه الله، ثم تستبدله بجناح الرَّجاء، فترتفع به دون الوصول إلى الأمن من مكرِ الله، واعلم أنَّ رأس الطائر، الذي هو سببٌ لحدوث التوازُن بين الجناحين هو الحب، فيكون التوازُن بين الحب والخوف والرَّجاء اعتدالاً وانتعاشًا لقلب المؤمن، بل وحياة له.

قال أحمد: وكأنَّها مُتلازمة، قلت: نعم، حب، خوف، رجاء، قال: ولكن ترى هل الخوف والرَّجاء والمحبة هي كلُّ أعمال القلوب، أو سنُمتِّع قلوبَنا بعبادات قلبية أخرى؟ فلا يزال القلب مُشتاقًا لكل عبادة قلبيَّة، ولا أكتمُك سرًّا أنا أشعر أن كل عبادةٍ قلبية بمثابة دواء يُداوي لي قلبي، زدني زادَك الله من فضلِه.

أجبته: أبْشِر يا أخي، ما زالت الأدوية كثيرة، والحمدُ لله، ولكنَّنا وكما اتَّفَقْنَا هي بدايةُ تعارُف على هذه العبادات، دون الغوص في أنْهارها العذبة - قاطعني مُتمنِّيًا -: لوَدِدْت ألاَّ نفترقَ قبل أن تَملأ هذه المعاني السامية قلبي، ولكنِّي سأَبْذُرُه بُذُورها، وسأحرصُ على سُقياها دومًا - إن شاء الله - قلت: ملأ الله قلبَك خيرًا يا أخي، فلنذهب لنتوضأ استعدادًا للتهجُّد، قال: هَيَّا بسم الله، ولكن عن أي عمل قَلْبِيٍّ سنتحدث غدًا؟ قلت: نتحدث عن عملٍ هو مصفاة الأقوال والأعمال، من دونَه لا تقبل قربة، وبه تكشف الكربة، هو عملة نادرة فَهَيِّئ نفسَك لهذه العبادة الغالية، قاطعني الإمام: الله أكبر، تابعناه، وكبرنا لصلاتنا.

لمحة

**المخلص لربِّه كالماشي على الرِّمال الناعمة، لا تسمعُ له صوتًا، ولكن تَجد له أثرًا.**

**الفصل التاسع**

**مخلصين له الدين**

حُزن قد علا قلبي في بداية هذه الليلة من رمضان، لَمَّا نظرتُ إلى السماء فوجدتها قد أوشكت على ابتلاع قمرِها، وهو قد تآكل في كَبِدِها؛ إيذانًا بدُنُوِّ أجل هذا الشهر الكريم.

اللهم اجبُر كَسْرَنا على فِرَاق شهرنا: دعوة كأني أسْمعُها من كل لسان قد تلا كلامَ الله في هذا الشهر، كأنِّي أراها في كل عين دَمَعَت في تهجُّده، كأنَّها في كل قلب نَبَضَ في صيامه، اللهم اجبُر كسرَنا، قطع سهمٌ بصري نحو السماء صوتُ أحمد: السلام عليكم، أجبته: وعليكم السلام ورحمة الله، ما هذا الحزن الذي يعلو وجْهَك يا أحمد؟ قال: لقد بقيت ليالٍ معدودة، ويُطوى رمضان.

قلت في نفسي: يا إلهي، إنَّ أحمد قد شعر بما أشعُر به، وكأنَّ ما سمعته كان حقًّا، وما رأيته كان صدقًَا، أجبته: إنْ شاء الله نجتهد فيما بقي من ليالٍ، إنَّما الأعمال بالخواتيم، والعبودية مُستمرة مدى الأزمان، حتى تفارق الأرواحُ الأبدان، ولكن هل ما زلت تذكر عن أيِّ عمل قلبي نتحدَّث اليوم؟

عادت البسمة إلى وجهه، فأجابني: نعم، عن مصفاة الأعمال نتحدَّث، عن العُملة النادرة، أخْبَرتني، كيف أنسى؟ قلت: يا أخي، إنَّه الإخلاص يتحدَّث عن نفسه، فهو الصفاء والنَّقاء والتنَزُّه عن الأخلاط، فالشيء الخالص هو الذي ليس فيه شائبة مادية، أو معنوية، وأخلصُ الدين لله قصدُ وجهه - سبحانه.[[79]](#footnote-79)

والإخلاصُ كذلك هو صدق النيَّة مع الله - تعالى - بل هو نسيانُ رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، فالإخلاصُ هو روح الدِّين ولبابُ العبادة، فلا يرتفع عمل أبدًا ما لم تصحَبْه نية صالحة، وما لم يقرن بإرادة وجه الله وحدَه، بل إنَّ التدين الذي تكتنفه الأهواء ضربٌ من العوج النفسي والالتواء الخلقي، يثير التقزُّز والاشمئزاز، ولك أن تعلم - يا أخي - أن الإخلاص خلاص، وحرية، وفرار من كلِّ قيود الأرض؛ قال - تعالى -: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: 50]، فمن صَلَح فِرارُه إلى الله، صحَّ قرارُه مع الله، الإخلاصُ فرارٌ من الأثقالِ، والأغلالِ، والأوهان، والقيود، التي تشد النفسَ البشرية إلى هذه الأرض، وتثقلها عن الانطلاق، فيجيء هتاف الإخلاص قويًّا: "لا، لا، يا قيودَ الأرض، إنا نريد وجهَ الله، ونرغب إليه، فلا تحبسينا"[[80]](#footnote-80).

ومن علو شأنِ الإخلاص أنَّ الله يصرف عن صاحبه السوء والفحشاء؛ قال - تعالى - عن نبيه يوسف - عليه السَّلام -: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، فنجَّى الله عبدَه ونبيه يوسف بإخلاصه، وإحسانه، ومراقبته لربه، وعلى مستوى الأمة يَحفظها الله، وينصرها بإخلاص رجالها، وقد قال : ((إنَّما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتِهم، وصلاتهم، وإخلاصهم))[[81]](#footnote-81)، وما ذلك إلاَّ لأنَّ القلبَ المعنيَّ بأمر الله في علوٍّ من الله، وحتى الشيطان الرجيم، نعوذ بالله منه لا سُلطانَ له على المخلصين؛ قال - تعالى - عن الشيطان وإغوائه لمن في الأرض: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ \* قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ \* إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: 39-42].

ففي الإخلاص غناء عن الانشغال بمُحاربة الشيطان والشَّهوات، وإنَّما تخلص لله، فيكفيك الله كلَّ أعدائك دنيا ودين؛ قال أحمد: وكيف لنا أنْ نتربَّى على الإخلاص، ونغرسه في قلوبنا؟ أجبته: إنَّ التفكُّر في عظمة الله ووقاره، وتدبُّر أسمائه الحسنى وصفاته العُلى - هو أولى الخطوات في غرس الإخلاص في النُّفوس، فلو أنك تفكَّرت على سبيل المثال في اسمِ الله الغني، فتستحضر فَقْرَنا وغناه، وأنَّنا نحن الْمُعْوِزُون المحتاجون للغني - سبحانه -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، فيظهر لك معنًى يُزلزل نفسَ كل من لم يُخلص؛ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 19] يُرافق ذلك التجديد المستمر للنية واستصحابها قبل العمل، وأثناء العمل، وبعد العمل.

قال أحمد: وما سياسةُ كَتْمِ الحسنات التي أشرتَ لي إليها ذات مرة؟ أجبته: هذه أيضًا من عوامل تَحصيل الإخلاص، وتتمثَّل في التقليل من الحديث عن الإنجازات الشخصية والأعمال المهمة في حياة العبد، وقد قال أحد السَّلف: "إنِ استطعتَ أن تكتم حسناتك، كما تكتم سيئاتِك، فافعل"، فالإنسانُ لا يأمن على قلبه من الرِّياء، فالقلوبُ ضعيفة، والفتنة خطافة، وكان من شدة حرص السلف - رحمهم الله - على إخفاء أعمالهم أنْ أخفى بعضهم عملَه عن ذويه، فهذا أيوب السَّخْتِيَانِيُّ ينتحب في الليل باكيًا من خشية الله، وإلى جواره امرأته، فإذا انتبهت، قال: ما أشدَّ الزكام!

وكان يَعِظُ أصحابه قائلاً: "لا تعدَّ كلَّ ما ظهر من عملك، وإن عَدَّه الله لك، والمعنى أنَّ كلَّ خير تعمله - وإن تقبَّله الله منك - لا تعده؛ لأنه مظنة الشوب والكَدَر، وعلى العبد أن يَجتهد في ستر كلِّ خير يفعله، فهو أقرب إلى السلامة.

والإخلاص يا أحمد، "إذا حلَّ بالقلوب الواهية ينفخ فيها الرُّوح، ويُتيح لها أن تتلقى قبس الحياة من جديد، وما من مسلك يَسلكه صاحبُه أو منزل ينزله إلاَّ ويترك فيه أثرًا من نور"[[82]](#footnote-82).

ولنا أنْ نعلمَ - يا أحمد - أنَّ نَيْلَ الإخلاصِ ليس مستحيلاً، فمن يتحرَّ الخيرَ، يُعطَه، ومن يتوقَّ الشر يُوقَه؛ ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، وقبل أن نودع الإخلاص - يا أخي - نقول له: "ما أطيب عطرك! وما أبهى شيمك! تراك ترضى بقلوبنا أن تزرع فيها، وبنفوسنا أن تسكن إليها، والله، لقد أحببناك، عش بيننا، تصدَّق علينا؛ إنَّ الله يجزي المتصدقين، وسنعمل جاهدين حتى نكون أهلاً لحملك".

وهنا قال أحمد وقد انفرجت أساريره: والله، إنَّ أعمال القلوب حديقة غناء، دانية القطوف، غوث لكل مَلهوف نَحتاج لوضع كلِّ خميلة من خمائلها تحت المجهر؛ لتكبير كل دقائقها، والعمل بمقتضاها، فهل لي بمرجع يكون لي بمثابة السُّقيا للظمآن أتعاهدُه دائمًا، فأُقوِّي هذه العبادات في قلبي؟[[83]](#footnote-83)، أجبته: آتيك به إذًا - إن شاء الله - كي تبدأ بذور هذه العبادات في النَّماء، ودون توقُّف - إن شاء الله - قال: ولكن السؤال المحير: ما دامت كل هذه الجواهر والماسات من الدين، فما هذه النظرة الحولاء في دُنيا الناس اليوم؟ وما هذا التصوُّر الفاسد في كل دروب الحياة؟ مع ضياع المبادئ والقيم؟

المسلم ليس بأعور:

اعلم - يا أحمد - أنَّ أمتنا لا تشكو فقرًا في المبادئ أو القيم؛ حيث إنَّ المبادئ التي جاء بها الإسلام ستظل قادرة على تلبية الأشواق الفطرية للإنسان، كما أنَّها ستظل قادرة على إقامة التوازُن بين جوانب الحياة المختلفة، ولكن المشكلة التي نعانيها هي انخفاض مستوى فاعلية تلكم المُثُل والمبادئ؛ مما جَعَلَ واقع المسلمين، وكما ذكرت أنت - يا أحمد - فيه نوع من الحَوَل، بل وتطور الأمر من الحول إلى العَوَر والنَّظَر إلى الأمور بعين واحدة، **والمسلم ليس بأعور**، بل هو مأمور بشمولية النَّظرة، فقال - سبحانه -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: 208]؛ أي: تحت جميع شرائع الإسلام وبصورة متوازنة.

قال أحمد: وما الطَّريق الذي نسلكه للشِّفاء من هذا العور؟ أجبته: إنَّ من أهم سُبُل تحقيق الشمولية - يا أخي -:

**أولاً:** إنصاف الناس، وعدم هضم حقِّهم، فعندما يشب الخلاف، وتثور العداوات، يُصبح كثيرٌ من الناس عاجزًا عن الإبصار بعينين، فهو لا يرى إلاَّ المثالب والمساوئ، وحين تَهب رياح المودة، فإنَّ كثيرين أيضًا لا يُبصرون إلاَّ بعين الرِّضا، ومن هنا جاءت دَعوة شعيب لقومه واضحة صريحة للخلاص من هذه النَّقيصة حين نصح قومه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85]، فهذا من جهة تصحيح النَّظرة في العلاقات الاجتماعية، وعدم الحكم على الناس من ناحية واحدة، فيكون حكمًا أعورَ.

**ثانيًا:** النظرة التفصيليَّة: من أكبر الأخطاء التي تنافي التصوُّر الرشيد إصدارُ الأحكام العامَّة دون البحثِ عن تفصيل الحَدَث، وفي هذا الصَّدد يقول - سبحانه -: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ \* وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آَمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم:10 - 11].

فقد وُجد الكفر في بيت نبيِّين من الأنبياء الكرام، وخرج الإيمانُ من بيت أعدى أعداء الله، وفي ذلك تبصرة لأولي الألباب؛ حتى لا يُصدروا حكمًا عامًّا قبل النَّظرة التفصيليَّة، قال أحمد: تصوَّر أنَّني شخصيًّا أقع في هذا الخلل، وأظن أنِّي صاحب تصور سليم، قلت: إنَّ التصور السليم والنظرة الشاملة تأتي بلبس نظارة الإسلام، فتكون الرُّؤية من خلالها؛ لذلك كانت سِمَة أخرى من سمات الإسلام سببًا في بناء التصوُّر الصحيح، وهي:

**ثالثًا:** الدِّقة، فإنَّ التصوُّر السليم لأي قضية لا يتمُّ إلاَّ وَفق توصيف دقيق لها، ومن هنا غرست تعاليم الإسلام كلها في نفس المسلم ما يَجعله دقيقًا في كل حركة في حياته، إذا ما هو نَفَذَ إلى ما وراء الظَّاهر، فالعباداتُ التي هي في الأصل تعبير عن الخضوع للخالق أحيطت بإجراءات صارمة في كثير من الأحيان تَمْسَى الدِّقة جِبِلَّة في المسلم لا ينفكُّ عنها، فالصلاةُ موقوتة بأوقات مُحددة، ومثلها الزكاة، فهي ذات أنصبة مُحددة، والصيام كذلك، ولو أن مسلمًا صام 20 ساعة، ثم أفطر قبل الغروب بدقائق، لَما صح صيامه، وهكذا لا بُدَّ من تحري الدِّقَّة في بناء التصور الصحيح.

يُلازم الدقةَ ملمحٌ رابعٌ في صياغة التصوُّر السليم هو:

**رابعًا:** فضيلةُ المرونة الذهنية، فهي توجد للإنسان مساحات للحركة يوازن فيها بين الخير والشر، فيحاول من خلالها النَّفاذ إلى تصور سليم، ومن النَّماذج القرآنية التي تؤسس هذه السمة الحميدة في الرحلة التعليمية، التي قام بها موسى - عليه السَّلام - مع الخضر، قام الخضر بقتل الغلام، وخرق سفينة المساكين، وقد اعترض على ذلك موسى - عليه السَّلام - لما في عمله من إتلاف النفس والمال، فأجابه الخضر بقوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا \* وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: 79 - 80].

لقد علَّمنا الخضر - عليه السَّلام - كيف نُوازن بين الإبقاء على سفينة مَعيبة وبين ذهابها بالكلية، ولا ريب أن بقاءَها مَعيبة أخفُّ شرًّا، كما علمنا أن موتَ نفس واحدة أخفُّ شرًّا من هلاك نفسين، إنَّ هذه الرؤية المرنة يحتاجها المسلم في صياغة التصورات السليمة.

**خامسًا:** احترام الاختصاص من سُبُل النظرة السليمة للحياة أن يُعرف الفضل لأهله، وأن يُعترف بالتقدُّم لكل من تبحَّر في مَعرفة حقيقة من الحقائق، سواء أكانت شرعية، أم كونية، أم تاريخية، من المعلوم أنَّه لولا تقييمُ العمل، لما أمكن أنْ نرى التقدم العلمي، الذي أنجزته البشرية اليوم، والإسلام حين يوجهنا إلى التسليم لأهل الاختصاص فيما يُجمعون عليه إنَّما يغرس فينا مكرمة الإذعان للحقيقة، ولمن تظن أنه أكثر إدراكًا منا، هذا لأنَّ مُشكلة ادِّعاء المعرفة من أكبر المشكلات التي يُواجهها الناس، وهو شيء غير الاجتهاد، فالمجتهدُ عن أهلية يتردَّد بين الأجر والآجرين.

أمَّا المدعي مسؤول عن نتائج ادعائه، وفي الحديث: ((أيُّما طبيبٍ تَطبَّب على قوم لا يُعرف له تطبُّب قبل ذلك، فأعنتَ فهو ضامن))[[84]](#footnote-84).[[85]](#footnote-85)

كلُّ هذه المعاني كان غيابها سببًا رئيسيًّا في عدم وجود التصوُّر الأمثل للحياة قال أحمد: ولكن أظن أنَّ ضياع التصوُّر الصحيح حَدَث في هذه الأيام فقط، ولكنَّه لم يكن موجودًا على أيام السابقين، هل هذا صحيح؟ أجبته: بالطبع لا يا أحمد، فالتصوُّرات الخاطئة والرُّؤية الضبابية في كل زمان ومكان، ولكن الفارق هو نسبة تواجدها، وقد أعلن ابن الجوزي - رحمه الله - استياءه من ضعف التصوُّر، وتشوش الرُّؤية في زمنه.

فقال: "... رأيت كثيرًا من الناس مُشتغلين بصورة العلم، دون فهم حقيقته ومَقصوده، فالقارئ مَشغول بالرِّوايات، عاكف على الشواذ، يرى أنَّ المقصود نفس التلاوة، ولا يتلمَّح عظمة المتكلم، ولا زجر القرآن ووعده، ربَّما ظن أنَّ حفظ القرآن يدفع عنه، فتراه يترخص في الذُّنوب، ولو فهم، لعلم أنَّ الحجة عليه أقوى ممن لم يقرأ.

والمحدِّث يَجمع الطرق، ويَحفظ الأسانيد، ولا يتأمَّل مَقصود المنقول، ويرى أنَّه قد حفظ على الناس الأحاديث، فهو يرجو بذلك السلامة، ربَّما ترخص في الخطايا؛ ظنًّا منه أن ما فعل في خدمة الشريعة يدفع عنه، وعلى هذا أكثر الناس صور العلم عندهم صناعة..."[[86]](#footnote-86).

قال أحمد: إنَّني أشعر كأنِّي طفل وُلِدَ حديثًا، وقد أتم فطامه، وتعلَّم المشي، وتأهَّل للتعلُّم في أيام مَعدودة حقًّا أنَّ الدين يرسم لنا الحياة الهانئة بكل معالمها، قلت: من الجيد جدًّا - يا أحمد - أنْ تَجد هذه المشاعر، إنَّها مشاعر العودة إلى الفطرة السليمة هنيئًا لك.

قال أحمد: بالمناسبة، لقد جرى نقاشٌ بيني وبين أحدِ مَن أعتزُّ بهم من أقاربي، وبمنتهى الصَّراحة لم أعرف كيف أجيبه: قلت: وعن أي شيء كان يدور النِّقاش؟ قال: لما علم من والدتي أنَّ نظرتي للحياة بدأت تتغيَّر، وأن توجُّهاتي أضحت دينية، جاء لزيارتنا ناصحًا، فابتدأ بتهنئتي على هذا التحوُّل الكبير، ثم بدأ في سرد نصيحته التي (وسمها بالغالية) قائلاً: أحذِّرك يا بُنَيَّ من التطرُّف والانغلاق الفكري، فديننا دين الوسطية، قاطعته: صدق والله يا أحمد، فالتطرفُ سيِّئ في كل شيء ليس في الدِّين وحسب، وكذلك الانغلاق الفكري، فهو حَجْرٌ على العقل؛ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143].

قال أحمد: ولكن كلامه لم ينتهِ عند هذا الحد، قلت: إذًا أكملْ، قال أحمد: ثم قال: وإذا أردت أن تعبد ربَّك، فعليك بالإسلام المستنير الإسلام التقدُّمي، لا الإسلام الرجعي، فليس هناك وجه تعارُض أن تُصلي وتصوم، وفي الوقت نفسه تذهب للسينما والمسرح، إنَّها سماحة الإسلام، إنَّه من يُسر دين أن تعبد الله، وفي الوقت نفسه تعيش حياتَك، فانتبه لنفسك يا بني، قال أحمد: فأخبرني بالله عليك، ما الإسلام المستنير؟ وكيف يصحُّ أنْ أتعبَّد وأطيع وفي الوقت نفسه أُعْرِض وأَعْصِي؟!

أجبته - وقد تأذَّيت من هذه النَّصيحة المسمَّمة -: يَجب أن تعلم جيدًا أن الإسلام واحد، هو الإسلام الذي ارتضاه الله - عزَّ وجلَّ - لنا، قاطعني: ما معنى ما قاله لي إذًا؟

سبيل المؤمنين:

أجبته: أنا أقصد أن الإسلامَ الصحيح واحد، وهو صراطُ الله المستقيم الذي ندعو في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] أن يرزقنا سبيله، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، الإسلام الصحيح شامل لا يعتوره نقص في أيٍّ من مَجالات الحياة، بل هو منهج رباني لا عَلاقةَ له بالرجعية، فخصوم الإسلام يزعمون أنَّ الاستقامة على المنهج الصحيح للإسلام هي رجعية، وهذا زعم خاطئ من جذوره، فإنَّ الاستقامةَ على الإسلام لا تتعارض مع التقدُّم؛ لأن التقدم في الإسلام تقدُّم أخلاقي يَمضي قُدُمًا في تحقيق الرِّسالة التي نيطت بها هذه الأمة مع الأخذ بأسباب العُمران المادي في نواحي الحياة كلها، فإذا نحن طالبنا (بالترقي) إلى مُستوى السلف الذين حملوا الدين من قبلنا، فإن معنى ذلك التمسُّك بالمفاهيم الإسلامية الشاملة للعقيدة والعبادة والشريعة وسائر الأنشطة الإنسانيَّة، التي منها بلا شك الحقل العلمي، وليس من المتصوَّر أبدًا أن المنهج الصحيحَ للإسلام سيَضع الأمة الإسلامية في متحف التاريخ، بمعنى إرجاعها للأخذ بوسائل العصور السابقة للحياة العُمرانية بأساليبها في الإنتاج والنقل والتعلم والطب.

إذا علمنا كلَّ هذا يا أحمد يصبح منهج الإسلام واضحًا وضوحَ الشمس، وهو "يتلخَّص في تطهير العقيدة من الشوائب والبِدَع، تربية الشخصية الإسلامية، فتح الذهن لقَبول كل جديد في ميادين العلوم التجريبيَّة إحياء العقيدة من منابعها، بعيدًا عن المذهبية الضيقة أو تطويع الشريعة الإسلامية لدعاوي التطوير الخاطئة"[[87]](#footnote-87).

كما أنَّ المسلمَ في ظلِّ هذا المنهج المبارك له وجه واحد لا يتغيَّر ولا يتلون، فهو مُستقيمٌ في كلِّ الميادين، مسلم في عمله وفي مسجده، مؤمن بكليَّات الدين وجزئياته، مذعن لأوامر الله داخل المسجد وخارجه كلما تَحرَّك، وأينما ذهب، فهو وفق أوامر الله - سبحانه وتعالى - قال أحمد: كلام في مُنتهى الوُضوح، ولكن ما الفكرة في هذا الإسلام المستنير، وما أصله؟ أجبته: لما علم أعداءُ الإسلام حقيقةَ أنَّهم لا طاقةَ لهم في مواجهة الإسلام الأصيل، فراحوا يُصمِّمون (الإسلام المودرن)، أو ما يُسمى بالإسلام المستنير، فالاسم اسم الإسلام، ثم هو مفرغ عن كل معانيه وقيمه، فلا تعجب إذًا ممن يقول لك: ليس هناك تعارُض بين أن تصلي وتذهب للسينما.

ومن معالم هذا الإسلام الذي يسمونه المستنير "التركيز على جانب واحد من جوانب الدين، وتوجيه الناس إليه فقط، الجانب الأخلاقي مثلاً، وذلك استقلالاً عن تناوُل المنظومة الشمولية للإسلام، والدين كلٌّ لا يتجزَّأ، هو الأخلاقُ والعلم والعمل والدعوة... نَعَم، الدِّينُ كُلٌّ"[[88]](#footnote-88).

إذا أردت - يا أحمد - أنْ تعيشَ حياتك، فعشها، ولكن وَفْقَ ما يُرضي الله - سبحانه وتعالى - هذه هي نظرة الإسلام الصَّحيح للحياة، قال أحمد - وقد هدأت نفسه -: أظنُّ أنَّ هذا المنهجَ الصحيح منهجٌ ملزم لكلِّ مُسلم، أليسَ كذلك؟ قلت... وقبل أن أجيبَ تدخَّل مُكبِّر الصوت يُعلن أنَّه قد تم استطلاع هلال شوال، وأنَّ اليومَ هو آخر أيَّام شهر رمضان المبارك، ونظر كل واحد إلى مَن بجانبه، وكأنَّه يُعزِّيه... تسابقت الدُّموع تنحدر على الوجنات حزينة هي كذلك، كيف ستُفارق رمضان، وقد أَنِسَت تلك الدَّمعات بليلِ المتهجدين فيه، وأَنِسَ المصلون بعضُهم ببعض، فكان من ثمرات هذه الليالي العَلاقات الأخويَّة التي شيَّدت بين أحضان الركوع والسجود.

وأخرج كلُّ واحد هاتفَه يأخذُ رَقْمَ كل مَن يلقاه وأحَبَّه في الله، ويأخذُ منه وعدًا بعدمِ قطع هذه العَلاقات الطيبة بعد رمضان، وتداخلت المشاعر، واختَلَطت البسمات والدَّمعات، وعلت خفقاتُ قلوب المُحبِّين على صوت الإمام، وهو يرشد الناس في إخراج زكاة الفطر، وارتفعَ نشيجُهم ولم يَجدوا لهم متنفَّسًا إلاَّ احتضان إخوانهم، حتى الباعة المتجولين أمام المسجد بدت انفعالاتهم واضحة...

رفع أحمد رأسَه من على كتفي وقد احْمرَّت عيناه قائلاً: لابُدَّ أن نلتقي... قلت: حتمًا - إن شاء الله - قال: اليوم موعد النصيحة الأخيرة أرجو منك أن تكون استكمالاً لما بدأناه، ما رأيك أن نصلي الفجر سويًّا، ثم العيد؟ قلت - وقد أحسست أنَّ أحمدَ مُتوترٌ قليلاً -: نعم نتقابل - إنْ شاء الله - ولا تنسَ إخراجَ زكاة الفطر، قال: وهو كذلك، أراك بخير، السلام عليكم، قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

غزْل وغزْل، وإيمان وإيمان

**قابلتِ العنكبوتُ دودةَ القز، فقالت: لي غَزْلٌ، ولك غزل.**

**قالت دودة القز: غزلي لباسُ الملوك، وأردية السلاطين، وغَزلك مصائدُ الذُّباب والحشرات، وعند مَسِّ الغَزْلين، تعرفين الفَرق.**

**وهكذا الإيمان: إيمان في علو، وإيمان إلى سفول، وعند الحساب يستبين الفرق.**

**الفصل العاشر**

**نحو بناء متكامل**

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد.

تكبيرات العيد تَشُقُّ صَمْتَ السَّحَر، تنبعثُ من حناجر المُوحِّدين يعظمون ربَّهم على ما هداهم من صيامٍ وقيامٍ وقرآن، ويُعلنون أنَّ أيَّام رمضان ولياليه قد علَّمتهم أنَّ الله أكبرُ، أكبر من الدُّنيا، الله أكبر من أعمارنا، الله أكبر من أولادنا وأزواجنا، توقفت تكبيرات العيد للحظة صَدَع معها المؤذِّن يكبِّر أيضًا، ولكن إيذانًا بدخول وقت الفجر لأول أيام شوال فجر عيد الفطر المبارك: قام المصلون إلى ركعتين خير من الدُّنيا وما فيها، أقيمت الصلاة ثم سلم الإمام، عاد المسلمون يترنمون بتكبيرهم تشدو البلابل معهم في أعشاشها حتى أمواج البحر تخلت عن خريرها دعمًا منها للتكبير، وكأن الكون كله يكبر.

أحمد يكبر ويَحمل بعض التمر يَمنحه للمصلين، قطع الصفوف، وصل إليَّ، ابتدأ كلامه معي بشق تمرة وضعها في فمي قائلاً: تقبَّل الله منا ومنكم، أجبته: آمين، ما أجمل الحياة تحت بارقة الإيمان، وفي أحضان مَن تحب من الإخوان! قال: صدقت والله، إنِّي لأشعر باليتم لفراق هذه الأوقات الإيمانية، وهذه الوجوه النورانيَّة، وأخشى حقيقة أن يتهدَّم ما بُنِيَ في قلبي من إيمان بعد رمضان ولياليه، قلت: ولِمَ هذه النظرة يا أحمد؟ لِمَ لا تقول لنفسك: إنَّ ما حصلناه من إيمان هو حَجَرُ الأساس، وسوف نسعى إلى إتمام البناء؛ حتَّى نصلَ إلى بناء مُتكامل كان الأولى أن نتساءل: كيف نرتقي بهذا الإيمان؟ وكيف نصل إلى الكمال؟ قال: ولكن أخبرتني أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، قاطعته: إذًا يكون في زيادة، لماذا تفترض النُّقصان؟ إنَّ النبيَّ  أرشدنا إلى كيفية الحفاظ على الإيمان، بل ترقيته وزيادته، وحدثنا عن طبيعة الإيمان، فقال: ((إنَّ الإيمان ليخلق في جوف أحدكم، كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يُجدد الإيمان في قلوبكم))[[89]](#footnote-89).

فبيَّن - عليه الصلاة والسلام - أنَّ الإيمانَ لو لم يُحَط بالرعاية اللازمة والتعاهُد المستمر، فإنَّه سيصبح مثل الثوب المهترئ البالي، بمجرد أن يَمسه أحد يتفسخ ويتهتك، والعلاج: فاسألوا الله أن يُجدد الإيمان في قلوبكم - اللَّهم جَدِّد الإيمان في قلوبنا - فالإيمان يَحتاج دومًا إلى التجديد المستمر، بأن يكون كل يوم في حياتك مختلفًا عن سابقه ولاحقه.

**الفصل الحادي عشر**

**برمج حياتك**

فكلُّ يومٍ له لون جديد في الطاعة، فالطَّاعة في ديننا كثيرة ومُتنوعة، فأنجزْ كلَّ يوم شيئًا جديدًا، شرطَ أن تقوم به على أحسن وجه[[90]](#footnote-90)، مع مُلاحظة عدم الاهتمام بالكمِّ على حسب الكيف، بل نَهتم بالكيف؛ يعني: بِجودة العمل، مع الارتقاء بالكم شيئًا فشيئًا والاستكثار من الخيرات والطَّاعات والتشبُّع بأعمال البر، وترك الذنوب صغارها وكبارها، واعلم يا أحمد، أنَّ العبدَ عند بداية استقامته يَجد قوة تَحثُّه على السير، وتدفعه إلى الخير، ويشعر بلذة إن لم يستغلها ويُحافظ عليها بالطاعات، ستذهب عنه ولا عزاء، قال: إنَّني بالفعل أشعر بما تقول، هذه الرغبة العارمة في فعل الخير، وذاك المذاق في قلبي ما أجمله!

أجبته: لذلك وجب علينا أنْ نستغلَّ بَهَاءَ البداية، وهذه القوة الدَّافعة، فصحة الانتهاء من صحة الابتداء، وفساد الانتهاء من فساد الابتداء، فمن كانت له بداية محرقة، كانت له نهاية مشرقة.

قال أحمد: فكيف إذًا نرتقي بإيماننا، ونرفع منسوبه؟ قلت: من فضلِ الله - يا أحمد - أنه لا يكلف نفسًا إلاَّ وُسعها، فجعل كل ما يُحب في مقدور العبد، فكل سبب في زيادة الإيمان هو من المتاح لكلِّ عبد، فمُستقِل ومُستكثر، فالذي يريد النَّجاة يتزود بكلِّ ما أوتي من قوة، وهذا مما يُحبه الله؛ ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197]، وهناك حد أدنى من الطاعات لا تراجع عنه، وهي تحصينات مجربة تُزكي الإيمان، وتربيه، وتُحافظ على القلب وتحييه، ومثل ذلك: عمل اليوم والليلة قال: ماذا تقصد بعمل اليوم والليلة؟ قلت: المؤمن الذي يبحث عن الكمال، ويسعى في تحصيل السَّلامة له برامج دائمة من الطاعات والقربات، منها عمل اليوم والليلة، وهو البرنامج اليومي، وهناك برنامج أسبوعي، وشهري، وأربعيني، وبرنامج عمري، وآخر سنوي، وفي هذه البرامج بعض من أهم العبادات، وإلا فالقربات أكثر من أن تُحدد، ولكن هذه البرامج أمثله قابلة للزيادة والتطوير، ومن المهم جدًّا أن نضع نصب أعيننا أن الفرائض مقدمة دائمًا على رأس قائمة الاهتمامات، ثم السنن الراتبة، فالنوافل المطلقة، ولنحذر - يا أخي - من عشوائية التعبُّد، فنهتم بالنوافل على حساب الفرائض.

البرنامج اليومي:

وفي الحديث القدسي: ((... وما تقرَّب إلَيَّ عبدٌ بشيء أحب إلَيَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إلَيَّ بالنوافل حتى أحبه))[[91]](#footnote-91)، ومن أوَّل الاهتمامات اليومية للعبد الصلاة، "فهي آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين، وأفضل الأعمال بعدهما، وهي رأس العبادة البدنية، بل إن الطريق إلى الفلاح والتمكين يبدأ من المحاريب، وللأسف الشديد لقد صار المصلُّون بالنسبة إلى جملة المنتسبين إلى الإسلام قليلين، والذين يشهدون صلاة الجماعة من هؤلاء أقل، والخاشعون في صلاتهم أقل من القليل، واعلم - يا أخي - أن الصلاة النافعة هي الصلاة الخاشعة؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1 - 2].

وهَيَّأَ لنا أسبابَ الخشوع، فينهى النبي  عن الإسراع في المشي إلى المسجد، ونهى عن الصلاة بحضرة طعام، كذلك وهو يدافع الأخبثين؛ دفعًا لما يطرد الخشوع[[92]](#footnote-92)، وجعل ((مَن خرج من بيته مُتطهرًا إلى صلاة مكتوبة، فأجره كأجر الحاج المحرم، وصلاة على أثر صلاة لا لغوَ بينهما كتاب في عليِّين))[[93]](#footnote-93).

يتبع الحفاظ على صلاة الفريضة الحفاظ على السنن الرَّاتبة القبليَّة والبَعدية، "وهذه النوافل كالخنادق التي تُحفر لحراسة الحصن، أو كالسُّور الذي يقام حول المدينة، فلا يَمسها سوء، ولا يصل إليها عَدو، حتى يَجتاز هذه الخنادق، أو يقتحم السور، فمَن حافظ عليها، كانَ أجدرَ به أن يُحافظ على الصَّلوات المكتوبة، كما أنَّها تكمل ما وقع في الفريضة من نقصٍ، وتَجبر ما طرأ عليها من كسر"[[94]](#footnote-94).

وعن أمِّ حبيبة - رضي الله عنها - قالت: قال رسولُ الله : ((ما من مُسلم يُصلي لله - تعالى - في كل يوم اثنتي عشرة ركعة تطوعًا، إلاَّ بَنَى اللهُ له بيتًا في الجنة))[[95]](#footnote-95)، وهي صلاة "أربع ركعات قبل الظهر، وركعتين بعدها، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء، وركعتين قبل الفجر"[[96]](#footnote-96).

قال أحمد: وماذا نفعل في البرنامج اليومي بعد الاهتمام بأمر الصلاة؟

صنع على عين الله:

الصُّنع على عين الله، وبهجة النفس في قراءة القرآن الكريم؛ ((من قرأ منه حرفًا، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف))[[97]](#footnote-97)، وتأمَّل معي - يا أحمد - في سورةٍ من أقصر السور في القرآن الكريم، وكم فيها من الحسنات! وكم نستغرق من الوقت في قراءتها؟ سورة الإخلاص بالبسملة (66) حرفًا بضربها في 10 = 660 حسنة في 15 ثانية تقريبًا، فكم نضيع من الحسنات، وقد حثَّ الله عبادَه على تلاوة القرآن، فقال - سبحانه -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: 29].

"وتلاوة القرآن - يا أحمد - تعني شيئًا آخر غير المرور على كلماته بصوت أو بغير صوت، تعني تلاوته عن تدبُّر ينتهي إلى إدراك، وتأثر، وعمل بعد ذلك، وسرور، ومن ثَمَّ يتبعها بإقامة الصلاة وبالإنفاق، رجاؤهم بذلك تجارة لن تبور"[[98]](#footnote-98).

وقد امتثلَ الصالحون من السَّلف إلى هذه الوصايا، فنجدهم حريصين كلَّ الحرص على تلاوة القرآن، ولهم عادات مُختلفة في قدر ما يَختمون فيه قراءتَهم للقرآن غير أنه أساس في البرنامج اليومي، فنجد بعضهم يَختم في كل شهر ختمة، وبعضهم في كل عشر ليالٍ ختمة، وبعضهم في كل سبع، وعند كثيرين في كلِّ ثلاث ليالٍ، وأقل القليل - يا أخي - جزء في اليوم بمعنى ختمه كلَّ شهر، وقد قال النبي  لعبدالله بن عمرو: ((واقرأ القرآن في كل شهر))[[99]](#footnote-99).

لماذا نقرأ القرآن:

ومن أجل تَحصيل أكبر قدر من الحسنات والفائدة - لا بُدَّ أن نقرر لماذا نقرأ القرآن، فكلَّما تعدَّدت النوايا، عَظُم الأجر، فمثلاً: "نقرأ القرآن؛ لأنَّ الله يُحب ذلك"، ونقرأ القرآن؛ لزيادة الإيمان؛ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2]، ونقرأ القرآن بقصد الهداية؛ ﴿الم \* ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 1 - 2]، ونقرأ القرآن بقصد التدبُّر؛ ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29]، ونقرأ القرآن بقصد الاستشفاء من أمراض القلوب والأبدان؛ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82]، نقرأ القرآن بقصد ذكر الله، وقد قال النووي - رحمه الله -: "أفضل الذكر قراءة القرآن، ولن تتقرب إلى الله بشيء أحب إليه من كلامه".

\* نقرأ القرآن بقصد العلم؛ قال ابنُ مسعود : "إذا أردتم العلم، فانثروا هذا القرآن، فإنَّ فيه علمَ الأولين والآخرين"، نقرأ القرآن بقصد أن يَجعله الله شفيعًا يومَ القيامة؛ ((الصيامُ والقرآن يشفعان للعبد يومَ القيامة)).

قال أحمد: سبحان الله! لقد كنت أقرأ القرآن من أجل الثواب فقط، ولم أكن أعلم كل هذه المقاصد.

إنَّها وحْدَها حصن حصين تزيد الإيمان، وتبعدُ الشيطان، بل لو كانت وحْدَها في البرنامج اليومي، لكفت، ولكني أظنُّ أن لها أخوات، فما الطاعة التالية في البرنامج اليومي؟

ولذكر الله أكبر:

أجبته: إنَّه الذكر الذي يُرضي الله، ويَطرد الشيطان، وهو من أسهل العبادات وأخفها، ولم نطالب بالإكثار من شيء من العبادات إلاَّ الذكر؛ لقوله - تعالى -: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: 35]، والذكر يصحُّ في كل المواقف، في السرِّ والعلن، في المرض والعافية، في السفر والحضر، في السلم والحرب، وقد وعد الله عبادَه بذكرهم إذا ذكروه، فقال - سبحانه -: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، وليس العَجب من فقيرٍ يسأل غنيًّا، أو ضعيفٌ يستعين بقوي، ليس العجب من قوله: ﴿فاذكروني﴾ إنَّما العجب من قوله: ﴿أذكركم﴾، وقد دَلَّ النبيُّ  أمَّته على أتَمِّ صور الذِّكر، فقيَّد - عليه الصلاة والسلام - أذكارًا، وأطلق أخرى؛ بمعنى أنه خَصَّ بعض الأوقات والأحوال بأذكار معينة، وعلمنا كيف نذكر ربَّنا فيها، ومن أبرز هذه الأذكار أذكار الصباح والمساء.

وموعد أذكار الصباح من بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وأذكار المساء من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، ومن الأذكار الموظَّفة كذلك ذكر دخول المنزل، والخروج منه، ودُخول الخلاء، والخروج منه، ولبس الثوب، وركوب الدَّابة، وأذكار النوم، وغيرها من الأذكار، ويُمكنك - يا أخي - أن تصحب كتابًا تقرأ منه هذه الأذكار[[100]](#footnote-100)؛ حتى توفق إلى حفظها.

سنة الإشراق:

وهى من أعمال البرنامج اليومي، فعن أنس  قال: قال رسولُ الله : ((مَن صلى الصبحَ في جماعة، ثم قعد يذكُر الله حتى تطلُعَ الشمس، ثُمَّ صلى ركعتين، كانت له كأجر حجة وعُمرة تامة تامة تامة))[[101]](#footnote-101).

سنة الضحى:

عن أبي الدرداء  قال: قال رسول الله : ((من صلى الضُّحى ركعتين، لم يكتبْ من الغافلين، ومَن صلى أربعًا، كتب من العابدين، ومن صلى ستًّا، كفاه الله ذلك اليوم، ومن صلى ثَمانية، كتبه الله من القانتين، ومن صلى ثنتي عشرة ركعة، بنى له اللهُ بيتًا في الجنة))[[102]](#footnote-102).

قيام الليل "دأب الصالحين":

عن أبي أمامة قال: قال : ((عليكم بقيام الليل، فإنَّه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم))[[103]](#footnote-103).

وبالوالدين إحسانًا:

برُّ الوالدين، والإحسان إليهما - من آكد الأعمال اليومية؛ ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، ومن البر اليومي الزيارة لهما، وقضاء حاجتهم، وأقل القليل اتِّصال تليفوني يومي.

صلاه الوتر:

عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - أنَّ النبي  قال: ((اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا))، وهذا ليس كل شيء - يا أحمد - إنَّما هي أمثلة تحضيرية، وباب الخير فسيح، ومَن يتحرى الخير يعطه، وهنا عاد صوت التكبير يُحرضنا على الخوض في غماره، قطعنا حديثنا، وسبحنا مكبرين: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيرًا، خرج الإمام، فانتصب المصلون متابعين لإمامهم، انتهت الصلاة، واعتلى الإمام منصة العيد؛ ليخطبَ المسلمين، وزعت الهدايا والحلوى على الأطفال، نزل الإمام من على منصته، وتعاون المسلمونَ على جمع سجادات الصلاة، وأفلوا راجعين إلى بيوتهم، بقيت أنا وعصبة من الشباب من أصدقاء أحمد حملتهم في السيارة، وقبل أن نتحرك، بادرني أحمد: هل سنتكلم عن البرنامج الأسبوعي للمسلم؟ أجبته: بالطبع - يا أخي - وأول هذه الأعمال.

العيد الأسبوعي:

يوم الجمعة، فعن أوس بن أوس الثقفي  قال سمعت رسول الله  يقول: ((من غَسَّلَ يوم الجُمُعة واغتسل، وبَكَّر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع، ولم يلغُ، كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها))[[104]](#footnote-104)، ومن السنة يوم الجمعة كثرة الصلاة على النبي  والذهاب مبكرًا للمسجد يوم الجمعة، والتطيب، ولبس أحسن الثياب وقراءة سورة الكهف، فعن أبي سعيد الخدري  قال: قال رسول الله : ((من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بين الجمعتين))[[105]](#footnote-105)، وكذلك فإنَّ في يوم الجمعة ساعة إجابة، ويُرجى أن تكون الساعة الأخيرة بعد عصر الجمعة، قال أحمد: ما أجمله من يوم جامع للخيرات! إنَّه حقًّا عيد لكل مُسلم، زدني زادك الله من الخير.

صيام الاثنين والخميس:

قال : ((تُعرض الأعمال على الله يومَ الاثنين والخميس، وأحبُّ أن يعرض عملي وأنا صائم))[[106]](#footnote-106)، وقال : ((من صام يومًا في سبيل الله، باعد الله بينه وبين النار سبعين خريفًا))، هذا غير ما للصوم من آثار تربوية من تهذيب للنَّفس، وكسر لحدة الشهوة.

هدية الأربعاء بعد صلاة الظهر:

عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - قال: "دعا رسولُ الله  في هذا المسجد (مسجد الفتح) يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء، فاستجيب له بين الصَّلاتين من يوم الأربعاء"، قال جابر: ولم ينزل بي أمر مهم غائظ، إلاَّ توخَّيت تلك الساعة، فدعوت الله فيها بين الصلاتين يوم الأربعاء إلاَّ عرفت الإجابة"[[107]](#footnote-107).

قال العلامة الألباني - رحمه الله -: لولا أنَّ الصحابي أفادنا أن دعاء الرسول  يومَ الأربعاء، كان مقصودًا - والشاهد يرى ما لا يرى الغائبُ - وليس الخبر كالمعاينة، لولا أنَّ الصحابي أخبرنا بهذا الخبر، لقلنا: إنَّ هذا قد اتُّفق لرسول الله  أنَّه دعا، فاستُجيب له في ذلك الوقت من ذلك اليوم، لكن أخذ ذلك الصحابي يعمل بما رآه من رسول الله  يومًا ووقتًا، ويُستجاب له، علمنا أنَّه سنة تعبُّديَّة لا عفوية، وهذا أمر فهمناه بواسطة الصحابي  فسبحان مَن لا تنقطع عطاياه!

صلة الرحم:

كثير من النَّاس يشتكي من جفاء أقاربه، ويبحث عن الحل؟ والحل أن يبدأ ويصلهم، فعن أبي هريرة  "أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، إنَّ لي قرابة، أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويُسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويَجهلون عليَّ، فقال : ((لئن كنت كما قلت، فكأنَّما تسفهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير ما دُمْتَ على ذلك))[[108]](#footnote-108).

ونقترح إعدادَ قائمة بأسماء الأرحام تَحتوى على أسماء الأعمام والعَمَّات والأخوال والخالات، معها العناوين، ومن أفضل الصِّلة الزيارة، ولك - يا أحمد - أنْ تَصِلَهم بالمهاتفة والمراسلة، والأحسن تنويعُ صور الوصل حسب الاستطاعة.

طلب العلم:

عن معاوية  قال: قال النبي : ((من يُرِد الله به خيرًا، يفقهه في الدِّين))[[109]](#footnote-109)، قال العلامة ابن باز - رحمه الله -: "معنى هذا أنَّ من لم يرد الله به خيرًا، لا يفقهه في الدِّين، وتتنوع - يا أخي - صور طلب العلم هذه الأيام من دروس في المساجد، وزيارة المكتبات، وسماع الأشرطة، والإسطوانات المدمجة، ومن أعظم فوائد طلب العلم تحصيل الخشية من الله - تبارك وتعالى -: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، فأشدُّ الناس خشية لله هم العلماء، وهنا قال أحد أصدقاء أحمد ممن استقلُّوا معنا السيارة: عفوًا ممكن أن أنزل هنا؟ توقَّفنا بالسيارة جانبًا، وقال: بكل صراحة الحديث مفيد للغاية، إن شاء الله أراكم قريبًا السلام عليكم، أجبنا: وعليكم السلام، ثم قال أحمد: سننتقل الآن إلى البرنامج الشهري؟

أجبته: هيا إلى البرنامج الشهري.

**ثلاثة أيام من كل شهر**، عن أبي هريرة  قال: "أوصاني خليلي  بصيام ثلاثة أيام من كل شهر"[[110]](#footnote-110)، وهي الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، وقال : ((صوم ثلاثة أيام صوم الدهر))[[111]](#footnote-111).

أذكار رؤية الهلال:

عن طلحه بن عبدالله قال: كان  إذا رأى الهلال قال: ((اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربُّنا وربُّك الله))[[112]](#footnote-112).

البرنامج الأربعيني:

**إدراك تكبيرة الإحرام**: عن أنس بن مالك  قال: قال : ((من صلى لله أربعين يومًا في جماعة، يدرك التكبيرة الأولى، كتب له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النِّفاق))[[113]](#footnote-113).

النظافة وسنن الفطرة:

عن أنس  قال: "وُقِّتَ لنا في قصِّ الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة - أنْ لا نتركَ أكثر من أربعين ليلة"[[114]](#footnote-114).

البرنامج السنوي:

صيام رمضان:

عن أبي هريرة  قال: قال رسولُ الله : ((مَن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدَّم من ذنبه))[[115]](#footnote-115).

الزكاة:

وهي فريضة؛ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المزمل: 20]، وهي طهرة للمال وزكاة للنفس.

العمرة:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله : ((عمرة في رمضان حجة معي))[[116]](#footnote-116).

التراويح:

عن أبي هريرة  قال: قال رسول الله : ((من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه))[[117]](#footnote-117).

صيام عرفة:

عن أبي قتادة قال: سئل النبي  عن صوم يوم عرفة، قال: ((يكفر السنة الماضية والباقية))[[118]](#footnote-118).

صيام يوم عاشوراء وتاسوعاء:

عن أبي قتادة قال: سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن صوم يومِ عاشوراء قال: ((يكفر السنة الماضية))، وقال - عليه الصلاة والسلام -: ((لئن بقيت إلى قابل لأصومنَّ التاسع))[[119]](#footnote-119).

صيام ستة من شوال:

عن أبي أيوب قال: قال رسولُ الله : ((مَن صام رمضان، ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام الدهر"[[120]](#footnote-120)

الأضحية:

وهي الشاة التي تذبح يوم العيد تقرُّبًا إلى الله عن أهل كل بيت مسلم قادر عليها، وفي الحديث: "كان الرجل يضحي بالشاة عنه وأهل بيته"[[121]](#footnote-121).

البرنامج العمري:

أداء فريضة الحج:

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]، وعن أبي هريرة  قال: قال رسولُ الله : ((من حج لله، فلم يرفث، ولم يفسق، رَجَع كيوم ولدته أمه)).

صلاة التسابيح:

عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهم - قال رسولُ الله  للعباس: ((يا عباس، يا عمَّاه، ألاَ أصلُك، ألاَ أحبوك، ألاَ أنفعُك، تصلِّي يا عمِّ أربعَ ركعات، تقرأ في كل ركعة بفاتحةِ الكتاب وسورة، فإذا انقضتْ القراءة، فقل: الله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، ولا إلهَ إلاَّ الله خمسَ عشرةَ مرة قبل أن تركع، ثم اركع، فقلها عشرًا قبل أن ترفع رأسَك، ثم ارفع رأسك، فقلها عشرًا قبل أن تسجد، ثم اسجد، فقلها عشرًا، ثم ارفع رأسَك، فقلها عشرًا، ثم اسجد الثانية، فقلها عشرًا، ثم ارفع رأسَك، فقلها عشرًا قبل أن تقومَ، فتلك خمس وسبعون في كلِّ ركعة، وهي ثلاثمائة في أربع ركعات، فلو كانت ذنوبك مثل زبد البحر، أو رمل عالج غَفَرها الله لك إنْ لم تستطعْ أن تصليها في كل يوم، فصلها في كل جمعة، فإنْ لم تستطع فصلها في كل شهر، فإنْ لم تستطع، فصلها في كلِّ سنة، فإن لم تفعل، ففي عمرك مرة"[[122]](#footnote-122).

التفتَ إليَّ أحمد كأنَّه في عالم غير العالم، شارد ببصره في الأُفُق، فبادرته قائلاً: فيمَ تفكِّر يا أحمد؟

قال أحمد: أتدري فيمَ أفكر؟ إنَّني أستنكر كلَّ لحظة قضيتها هناك بين أشباح الظلام، كيف كنت أحيا بين جُثَثِ الأحياء في هذا اللَّيل الرهيب، الذي لا صبحَ له، لقد كنتُ أمتطي صهوةَ الموت، وأظنُّ أنني على قِمَّة الحياة، لا أستطيع أن أصف لك طعم الحياة هناك، قاطعته: أحمد أنت الآن هنا، كنت هناك، ثم عدت، فاحتضنِ اللحظةَ الراهنة، يومَك يومَك، أنت الآن تَمتطي صهوة الحقِّ والخير، وليلك صبحه قريب، أنت الآن تستجمع قُوَّتك من جديد، وتستمد هذه القوة من هذه الأعمال الصالحة، التي يرتقي معها الإيمان، حتى تتربع حقيقة على قمة الحياة؛ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

وتَعَوَّذ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ، ما زلت ألمح في عينيك كلامًا، أجابني: أريد أن أهتف من أعماقي لكلِّ مَن يعيش هناك، هنا العيشُ وإلاَّ فلا، كما أريد أن أهمس في أُذُن كل مَن كان هناك، ثم عاد صبرنا الله وإياكم على الطاعة، ثم قال: هل من كلمة أخيرة قبل الوداع؟ قلت: أحب أن أقول لك: يا أحمد، لقد تمتَّعت كثيرًا بهذه الحوارات التي دارت بيننا، ولا تنسَ أنَّ كلَّ ما تكلمنا فيه وَمَضاتٌ وأسس، يَجب أن تبحث في معانيها جيدًا، ثم اعلم أنه لا وداعَ بيننا ما دُمنا هنا سنلتقي دائمًا.

وأسأل الله كما جمعنا في الدُّنيا على طاعته أن يَجمعنا في الجنة برحمته؛ إنَّه أكرم مَن سُئِلَ، وأجود من أعطى، وهو بالإجابة جدير، قال أحمد: والله، لقد أحببتك في الله، ثم طرح أحمد نفسه على كتفي معانقًا، وانحدرت دَمَعاتُه، فهيَّجَت دَمَعاتي، والتقت دمعاتنا، فتعانقت مُودعة هذه الأوقات الغالية، شَدَدْتُ على يد أحمد مصافحًا: أستودعك الله يا أحمد، يا حبيبي، أجابني: السلام عليكم، قلت: وعليكم السلام، أدرت مُحرِّك سيارتي، وانطلقت وأنا أؤمل أن يبقي أحمد هنا، ولا يلتفت إلى هناك، لعلنا أن نلتقي في الأخرى هناك.

سطرت أحداث هذه القصة في الإسكندرية 13 جمادى الثاني1430، الموافق 6 يونية 2009.

**وكتبه صبري محمد رجب**

المراجع

1- أعمال القلوب، محمد صالح المنجد، دار الفجر - القاهرة.

2- أدب الطلب ومنتهى الأرب، الشوكاني، الدار العصماء - المغرب.

3- أصول الوصول إلى الله، محمد حسين يعقوب، دار التقوى - القاهرة.

4- إلى الهدى ائتنا، محمد حسين يعقوب، دار التقوى - القاهرة.

5- الآداب الشرعية والمنح المرعية، بن مفلح المقدسي، دار أحد - القاهرة.

7- أعلى النعيم، سيد حسين العفاني، دار العفاني - القاهرة.

8- الإيمان وإيقاظ القوى الخفية، توفيق الواعي، دار البشائر - دمشق.

9- الإيمان أولاً، مجدي الهلالي، دار التوزيع والنشر الإسلامية.

10- الإسلام الليبرالي، محمد إبراهيم مبروك، الدار القومية - القاهرة.

11- آخر الفرسان، فريد الأنصاري.

12- بداية الهداية، أبي حامد الغزالي، دار السلام - القاهرة.

13- برمج حياتك، حمود البورسعيدي.

14- البحار الزاخرة في أسباب المغفرة، سيد حسين العفاني، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

15- تفسير ابن كثير، ابن كثير الدمشقي، دار صلاح الدين - القاهرة.

16- تفسير السعدي، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، دار الحديث - القاهرة

17- تهذيب موعظة المؤمنين، جمال الدين القاسمي، دار ابن خلدون - الإسكندرية.

18- تهذيب مدارج السالكين، العزي، مؤسسة الرسالة.

19- تعطير الأنفاس، سيد بن حسين العفاني، دار معاذ بن جبل.

20- جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، دار المعرفة - بيروت.

21- جمالية الدين، فريد الأنصاري، دار السلام القاهرة.

23- الجوانب الاجتماعية للإدمان، السيد العشماوي، مؤسسة البيارق - بيروت.

24- سلسلة الأحاديث الصحيحة، ناصر الدين الألباني، الدار السلفية - الكويت.

25- سنن أبى داود، تحقيق: محي الدين عبدالحميد، دار الفكر - بيروت.

26- سلامة قلبك، خال أبو شادي، طيبة للنشر - القاهرة.

27- الشباب المسلم في مواجهة التحديات، عبدالله ناصح علوان، دار السلام - القاهرة.

28- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، الريان للتراث - القاهرة

29- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار الحديث القاهرة.

30- صيد الخاطر، ابن الجوزي، دار ابن خلدون.

31- رسائل الإصلاح، محمد الخضر حسين، مركز سنابل الخير - المغرب.

32- عجز الثقات، محمد موسى الشريف، الأندلس الجديد للنشر.

33- عالم الشهرة والأضواء، سعيد عبدالعظيم، دار الإيمان - إسكندرية.

34- عش هانئًا، كريم بكار مركز الراية.

35- عودة الروح مجدي الهلالي، دار النشر والتوزيع.

36- العبادات القلبية، ياسر برهامي - الخلفاء الراشدين.

37- العيش في الزمن الصعب، عبدالكريم بكار - دار القلم دمشق.

38- حقيقة العبودية، مجدي الهلالي، دار النشر والتوزيع.

39- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، دلهي.

40- فقه أشراط الساعة، محمد بن إسماعيل المقدم، الدار العالمية - إسكندرية.

41- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق - بيروت.

42- فصول في التفكير الموضوعي، عبدالكريم بكار، دار القلم – دمشق.

43- الفوائد، ابن قيم الجوزية - دار الريان للتراث.

44- لماذا نصلي؟ محمد ابن إسماعيل المقدم، دار العقيدة - الإسكندرية.

45- ليلي بين الجنة والنار، خالد أبو شادي - النور للإنتاج والتوزيع.

46- مساوئ الأخلاق، خالد الحازمي - الأوقاف السعودية.

47- مشكلات الشباب العاطفية والجنسية، عبدالرحمن واصل - ملتقى الفكر.

48- هكذا تحقق أهدافك، أشرف شاهين - مؤسسة اقرأ.



|  |  |
| --- | --- |
| **الموضوع** | **الصفحة** |
| **المقدمة** | 2 |
| **الفصل الأول: اللقاء.** | 5 |
| **الفصل الثاني: يا ليتنا ما تركناها.** | 6 |
| **الفصل الثالث: ضربة البداية.** | 11 |
| **الفصل الرابع: تحديات العصر.** | 16 |
| **الفصل الخامس: نحو المعالي.** | 24 |
| **الفصل السادس: بريق الهدف.** | 30 |
| **الفصل السابع: من أجل عبد حقيقي.** | 37 |
| **الفصل الثامن: من خاف سلم.** | 43 |
| **الفصل التاسع: مخلصين له الدين.** | 47 |
| **الفصل العاشر: نحو بناء متكامل.** | 57 |
| **الفصل الحادي عشر: برمج حياتك.** | 59 |
| **المراجع** | 71 |
| **الفهرس** | 74 |

1. من كلام الفضل الرقاشي، نقلاً عن "ليلي بين الجنة والنار". [↑](#footnote-ref-1)
2. من كلام دكتور سعيد عبدالعظيم - حفظه الله - في مقدمة "رسالة القواعد الفقهية"، لسامي الدوسشني. [↑](#footnote-ref-2)
3. "مفتاح دار السعادة"، ص13 إلى 17، بتصرف. [↑](#footnote-ref-3)
4. "عودة الروح"، ص21 إلى 30 بتصرف. [↑](#footnote-ref-4)
5. من كلام يَحيى بن معاذ - رحمه الله - نقلاً عن "أعلى النعيم"، ص 116. [↑](#footnote-ref-5)
6. "السلسلة الصحيحة". [↑](#footnote-ref-6)
7. انظر: "تفسير السعدي". [↑](#footnote-ref-7)
8. إشارة إلى أول منزلة من منازل السائرين، انظر: "مدارج السالكين". [↑](#footnote-ref-8)
9. الداجة: الحاجة الكبيرة. [↑](#footnote-ref-9)
10. ذكره في "الترغيب والترهيب"، وقال رواه البزار والطبراني، واللفظ له، (4/112) إسناده جيد قوي. [↑](#footnote-ref-10)
11. "مدارج السالكين"، 1/178. [↑](#footnote-ref-11)
12. أولو العزم من الرسل هم: نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد - عليهم الصلاة والسلام. [↑](#footnote-ref-12)
13. "التعرف بمذهب أهل التصوف"، (108 - 109). [↑](#footnote-ref-13)
14. صححه الألباني، "صحيح الجامع"، 7116. [↑](#footnote-ref-14)
15. "جمالية الدين"، بتصرف، (ص: 227 - 228). [↑](#footnote-ref-15)
16. حديث حسن رواه الطبراني والهيثمي في "المجمع"، (10/200) [↑](#footnote-ref-16)
17. جزء من حديث رواه مسلم. [↑](#footnote-ref-17)
18. رواه مسلم، 2944. [↑](#footnote-ref-18)
19. "جمالية الدين"، ص23. [↑](#footnote-ref-19)
20. "الشهرة"، لابن الجوزي، ص 32. [↑](#footnote-ref-20)
21. "الشباب المسلم في مواجهة التحديات"، ص78. [↑](#footnote-ref-21)
22. "صحيح الجامع"، 974. [↑](#footnote-ref-22)
23. "شرح حديث لبيك"، ص11. [↑](#footnote-ref-23)
24. "أدب الطلب ومُنتهى الأرب"، الشوكاني، ص186. [↑](#footnote-ref-24)
25. "سلامة قلبك"، دكتور خالد أبو شادي، ص15. [↑](#footnote-ref-25)
26. "إلى الهدى ائتنا"، الشيخ محمد حسين يعقوب، ص 208. [↑](#footnote-ref-26)
27. "سلامة قلبك"، 30. [↑](#footnote-ref-27)
28. متفق عليه البخاري، 647، مسلم 1053. [↑](#footnote-ref-28)
29. "أعلى النعيم"، ص14. [↑](#footnote-ref-29)
30. "الفوائد"، ص126، بتصرف. [↑](#footnote-ref-30)
31. "فتح الباري"، (10/456). [↑](#footnote-ref-31)
32. "الآداب الشرعية"، ابن مفلح، (2/205). [↑](#footnote-ref-32)
33. "مقدمة فصول في التفكير الموضوعي"، دكتور بكار. [↑](#footnote-ref-33)
34. "مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمة"، دكتور خالد الحازمي، ص28. [↑](#footnote-ref-34)
35. "تفسير ابن كثير"، (4/138). [↑](#footnote-ref-35)
36. "مشكلات الشباب العاطفية والجنسية"، د/ عبدالرحمن واظب، ص38. [↑](#footnote-ref-36)
37. "الجوانب الاجتماعية للإدمان"، أ/ سيد العشماوي. [↑](#footnote-ref-37)
38. "الإيمان أولاً"، د/ مجدي الهلالي، ص47، 46، بتصرف. [↑](#footnote-ref-38)
39. رواه مسلم والبخاري، "الأدب المفرد". [↑](#footnote-ref-39)
40. صححه الترمذي والنووي. [↑](#footnote-ref-40)
41. "فقه أشراط الساعة"، ص 306. [↑](#footnote-ref-41)
42. سبق تخريجه. [↑](#footnote-ref-42)
43. "عجز الثقات"، د/موسى الشريف، ص1328. [↑](#footnote-ref-43)
44. "فقه أشراط الساعة"، د/ محمد بن إسماعيل، ص 306. [↑](#footnote-ref-44)
45. رواه البخاري تعليقًا والترمذي، 2715، والقصة في الإصابة في غير الصَّحابة حسن صحيح. [↑](#footnote-ref-45)
46. "الجامع لأحكام القرآن"، القرطبي. [↑](#footnote-ref-46)
47. "رسائل الإصلاح"، الشيخ/ الخضر حسين، ص54. [↑](#footnote-ref-47)
48. "رسائل الإصلاح"، الشيخ/ الخضر حسين، ص85، 195 اختصار. [↑](#footnote-ref-48)
49. "عجز الثقات"، ص 15. [↑](#footnote-ref-49)
50. "الإيمان وإيقاظ القوى الخفية". [↑](#footnote-ref-50)
51. "موسوعة نضرة النعيم"، ص320. [↑](#footnote-ref-51)
52. من كلام ابن القيم، نقلاً عن "أصول الوصول إلى الله"، ص46. [↑](#footnote-ref-52)
53. "العيش في الزمن الصعب"، د/ بكار، ص 81. [↑](#footnote-ref-53)
54. "هكذا تحقق أهدافك"، أ/ أشرف شاهين، ص 10. [↑](#footnote-ref-54)
55. "محاضرة الهدف"، أ/ أحمد خليل خير الله. [↑](#footnote-ref-55)
56. "العيش في الزمن الصَّعب"، ص 102. [↑](#footnote-ref-56)
57. "عش هانئًا"، د/بكار، ص 154. [↑](#footnote-ref-57)
58. "جمالية الدين"، ص124. [↑](#footnote-ref-58)
59. "عش هانئًا"، ص155 بتصرف. [↑](#footnote-ref-59)
60. "العبادات القلبية"، د/ ياسر برهامي، ص5. [↑](#footnote-ref-60)
61. "حقيقة العبودية"، د/ مجدي الهلالي، ص42. [↑](#footnote-ref-61)
62. "تهذيب مدارج السالكين"، ص153. [↑](#footnote-ref-62)
63. "مدارج السالكين"، (3/726)، بتصرف. [↑](#footnote-ref-63)
64. "العبادات القلبية"، د/ ياسر برهامي، ص24، بتصرف. [↑](#footnote-ref-64)
65. "أعلي النعيم"، ص120. [↑](#footnote-ref-65)
66. رواه البخاري ومسلم. [↑](#footnote-ref-66)
67. "أعمال القلوب"، للشيخ المنجد، ص27. [↑](#footnote-ref-67)
68. "العبادات القلبية"، ص53، بتصرف. [↑](#footnote-ref-68)
69. رواه البخاري، 7485. [↑](#footnote-ref-69)
70. "صحيح الجامع"، 2110. [↑](#footnote-ref-70)
71. "صحيح الجامع"، 307. [↑](#footnote-ref-71)
72. "صحيح الجامع"، 6222. [↑](#footnote-ref-72)
73. د/ عبدالعزيز مصطفى كامل، مركز الأجيال للنَّشر والتوزيع. [↑](#footnote-ref-73)
74. "أعمال القلوب"، ص41، 42، بتصرف. [↑](#footnote-ref-74)
75. "العبادات القلبية"، ص51 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-75)
76. "العبادات القلبية"، ص86. [↑](#footnote-ref-76)
77. "العبادات القلبية"، ص 88. [↑](#footnote-ref-77)
78. "أعمال القلوب"، ص85 وما بعدها، بتصرف. [↑](#footnote-ref-78)
79. "أعمال القلوب"، ص7. [↑](#footnote-ref-79)
80. "تعطير الأنفاس بذكر حديث الإخلاص"، ص 203. [↑](#footnote-ref-80)
81. "صحيح الترغيب والترهيب"، (1/5). [↑](#footnote-ref-81)
82. "آخر الفرسان"، فريد الأنصاري، ص13. [↑](#footnote-ref-82)
83. من المراجع الرائعة: "رسالة العبادات القلبية"، د/ ياسر برهامي، "أعمال القلوب"، الشيخ/ محمد صالح المنجد، "العبادات القلبية"، د/ سالم النبهان. [↑](#footnote-ref-83)
84. "صحيح سنن الترمذي"، قال الألباني: حديث حسن. [↑](#footnote-ref-84)
85. "فصول في التفكير الموضوعي"، د/ بكار، ص101، بتصرف. [↑](#footnote-ref-85)
86. "صيد الخاطر"، ص213. [↑](#footnote-ref-86)
87. "عودة الحجاب"، القسم الأول، ص256 - 261، بتصرف. [↑](#footnote-ref-87)
88. "الإسلام الليبرالي"، ص141. [↑](#footnote-ref-88)
89. "السلسلة الصحيحة"، رقم: (1585). [↑](#footnote-ref-89)
90. "أصول الوصول"، ص: 282. [↑](#footnote-ref-90)
91. رواه البخاري. [↑](#footnote-ref-91)
92. "لماذا أصلي"، ص 185. [↑](#footnote-ref-92)
93. "صحيح الجامع"، ( 6228). [↑](#footnote-ref-93)
94. "لماذا أصلي"، ص 199. [↑](#footnote-ref-94)
95. رواه مسلم، 1199. [↑](#footnote-ref-95)
96. "صحيح سنن الترمذي"، 833. [↑](#footnote-ref-96)
97. "صحيح سنن الترمذي"، 327. [↑](#footnote-ref-97)
98. "في ظلال القرآن"، تفسير سورة فاطر. [↑](#footnote-ref-98)
99. رواه البخاري، رقم: 1842. [↑](#footnote-ref-99)
100. "كتاب مختصر النصيحة"، د/ محمد إسماعيل. [↑](#footnote-ref-100)
101. "صحيح سنن الترمذي"، (3/4). [↑](#footnote-ref-101)
102. "صحيح الترغيب والترهيب"، 674. [↑](#footnote-ref-102)
103. "صحيح الترغيب والترهيب". [↑](#footnote-ref-103)
104. "صحيح الترغيب والترهيب"، 69. [↑](#footnote-ref-104)
105. "صحيح الجامع"، 6471. [↑](#footnote-ref-105)
106. "صحيح الترغيب والترهيب"، 1031. [↑](#footnote-ref-106)
107. "صحيح الترغيب والترهيب"، 2/139، والأدب المفرد. [↑](#footnote-ref-107)
108. رواه مسلم، 46400، والمَلُّ: هو الرماد الحار. [↑](#footnote-ref-108)
109. رواه البخاري، 311. [↑](#footnote-ref-109)
110. رواه البخاري، 184. [↑](#footnote-ref-110)
111. "فتح الباري"، 1979. [↑](#footnote-ref-111)
112. "سنن الترمذي"، 2745. [↑](#footnote-ref-112)
113. "صحيح الترمذي"، 200. [↑](#footnote-ref-113)
114. رواه مسلم، 3019. [↑](#footnote-ref-114)
115. رواه البخاري، 1768. [↑](#footnote-ref-115)
116. البخاري، 1730، مسلم، 2202. [↑](#footnote-ref-116)
117. رواه مسلم. [↑](#footnote-ref-117)
118. رواه مسلم، 1977. [↑](#footnote-ref-118)
119. رواه مسلم، 1911، ومعنى قابل؛ أي: العام القادم. [↑](#footnote-ref-119)
120. رواه مسلم، 1984. [↑](#footnote-ref-120)
121. "سنن الترمذي"، 1425. [↑](#footnote-ref-121)
122. صحيح رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه الألباني، "صحيح الجامع"، 7955، وخلاصة كلام أهل العلم أنْ تصلَّى في العمر مرة. [↑](#footnote-ref-122)